تَمثُّلات الفحل والآخر قراءة سوسيو ثقافية في رواية مولانا لإبراهيم عيسى

A Socio-cultural Reading of "Mawlana" A Novel by Ibrahim Essa

د. هاني إسماعيل محمد أبو رطيبة[1،*]

[1] جامعة بني سويف - مصر

تاريخ الاستلام : 2020-08-25؛ **تاريخ القبول :** 2020-10-15 ؛ **تاريخ النشر :** 2020-11-30

ملخص:

تتناول هذه الدراسة قضية من قضايا الأدب الحديث، وهي تَمثُّلات الفحل والآخر في مجتمع النص المعاصر؛ فجدلية الفحل والآخر في الرواية العربية الحديثة تُعبِّر عن طبيعة العلاقة بين أبناء المجتمع الواحد في ظلِّ تبعات الصراع الحضاري المعاصر. وقد تصدَّى الخطاب الروائي لرواية مولانا برؤيته لمناقشة هذه الثنائيَّة، بما يعكس أدبيات الواقع العربي عامَّة والمصري خاصَّة. وتكشف هذه الرواية عن العلاقة بين نخب مجتمع النص: أفكاره، وصراعاته.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ الوصفيّ، للوقوف على البنية الفكريَّة والثقافيَّة للنص الروائيّ، ومدى استجابته للواقع المجتمعي. وجاءت الخاتمة، لتبرز دور المبدع التنويري في نشر المعرفة، ومواجهة الأنساق الثقافية التي تسهم في تأخر المجتمع عبر إشراك المتلقّي في خلق تفاعل إيجابي مع النص الروائي.

الكلمات المفتاحية : الفحل ; الآخر ; الأنا ; التابع ; النسق ; الثقافة ; المجتمع.

Abstract:

This paper investigates the representations of the dominating male (El-fahl) and the other in "Mawlana" by Ibrahim Essa which dealt with this duality reflecting the politics of the contemporary Arab condition in general and the Egyptian in particular. This novel reveals the relationships among the members of the textual elite: their ideas and conflicts.

The researcher employs the analytical descriptive method to investigate the intellectual, cultural structure of this narrative text, its extent of responding to the societal truth. The conclusion sheds light on the role of the writer in disseminating knowledge, and confronting the damaging intellectual tides which push the society back; by encouraging the recipient to create a positive communication with the narrative text.

Keywords: Male ; the other ; the ego ; the subaltern ; system ; culture ; society

* *المؤلف المرسل: hismaiel72@gmail.com

المقدمة

يعدُّ النصُّ الأدبيُّ وثيقة سرديَّة مهمَّة؛ تسعى لإحداث متعة فنية، وكشفٍ واقعي للحياة التي يعيشها الأديب، في زمانه، لكنْ مهما كان النص متشابهًا مع الواقع أو متطابقًا مع بعض أحداثه، لا ينبغي النظر فيه من أجل البحث في مدى مطابقته للواقع أو مخالفته له؛ أي أنَّ النص الأدبي لا يُنظر فيه من أجل البحث عمَّا فيه من صدق أو كذب؛ بل من أجل ما فيه من فن، ومن أجل الكشف عن قوانينه ونظامه الداخلي، من حيث هو نوع أو جنس أدبي[1]؛ لذلك يجب علينا، ونحن ندرس رواية مولانا لإبراهيم عيسى، أن نضع نصب أعيننا كونها عملًا روائيًا له قوانينه، ونظامه الداخلي، ولا نبحث فيها عن مدى صدقها في التعبير عن الواقع أم لا، فكل الأحداث والشخصيات في الرواية هي مجرد خيال فني قصد به المؤلف إحداث متعة فنية، ومنْح الإنسان خبرة في التعامل مع الأحداث، التي قد تتشابه مع حياته أو واقعه. يتعيَّن كذلك على الناقد الأدبي أن يكون موضوعيًا في دراساته وأن يُنَحِّي أيديولوجيته بعيدًا؛ كي يستطيع أن يتَّصف بالأمانة العلميَّة التي يقتضيها البحث العلمي.

لقد اهتمت الرواية العربية المعاصرة بتبني رؤية تنويرية معاصرة، تحاول من خلالها الانفتاح المجتمعي، عبر النص الأدبي، على العالم المحيط، وتحطيم التابوهات الحضاريَّة العتيقة، التي دفعتنا إلى التقوقع حول ذاتنا، برؤية أحادية منقوصة، أثَّرت بالسلب في المسيرة الحضاريَّة لمجتمعاتنا، وخلقت العديد من الأمراض المجتمعيَّة، التي تقاوم التجديد والتطوير، وترى ذاتها في الانغلاق التام، خوفًا من الوافد، أو ظنًا بأفضليتها المطلقة. إنَّ الرواية التنويرية الجديدة قصدت إحداث صدمة فكرية لدى المتلقّي؛ ليتفاعل معها إيجابيًا؛ ويكتشف بنفسه من خلال مجتمع النص الروائي خطر الانغلاق والتقوقع حول الذات الحضاريَّة، ورفْض الذات الحضاريَّة المعاصرة.

تعد رواية (مولانا) لإبراهيم عيسى رواية تنويريَّة، أو بمعنى آخر رواية أفكار، تعتمد السرد الروائي لطرح الأفكار التنويريَّة الجديدة، ونقد الأفكار القديمة التي تعوق – من وجهة نظرها – تَقَدُّمَ المجتمع ورُقيَّه، لذلك ركَّزت في تسلسلها السردي على الأفكار التي تعتنقها الشخصيات، وجاء الحدث وبناء الشخصية مُؤَسِّسًا للرؤية الفكريّة التنويريّة للرواية.

سعى النص الروائي إلى كشف الممارسات الاجتماعيَّة والفكريَّة والثقافيَّة الحادّة أو العنيفة؛ التي تؤدِّي بدورها إلى خلق مجتمع مضطرب، أو مُرتبك فكريًا. لقد رصدت الرواية بزوغ مفهوم الفحولة المجتمعيَّة، التي تَنَوَّعَت بين الفحولة الدينيَّة والرأسماليَّة والفحل الأعلى "قدسية الأشخاص"، تلك المفاهيم المجتمعيَّة التي أنتجت ما يعرف بأحاديَّة الفكر، التي خلقت التعصب للذات، ورفْض الآخر رفضًا حادًا يهدد السلم المجتمعي.

إنَّ تَمَثُّلات الفحل والآخر قراءة سوسيو ثقافية، هي دراسة أدبية تحاول قراءة النص الروائيّ من خلال المنهج الاجتماعيّ والدرس الثقافيّ؛ لما فيهما من ارتباط يَمَسُّ الواقع المجتمعي والإبداعي؛ ولأن كلًا منهما يؤدِّي إلى الآخر في نهاية المطاف، فبعض الأفكار الاجتماعيَّة تتحول إلى نسق ثقافي، والأنساق الثقافيَّة بطبعها تُحدث تطورًا وتغيرًا في العادات والتقاليد والأفكار الاجتماعيَّة؛ لذلك كان لزامًا أن أدرس رواية (مولانا) معتمدًا على كلا المنهجين؛ لأقف أمام

تلك التغيرات الاجتماعيَّة التي حدثت داخل مجتمع النص، وسعت إلى فرض نسقها على تعاملات الشخصيات داخل النص الأدبي.

إنَّ تَمثُّلات الفحل والآخر في رواية (مولانا) دراسة تهتم بتطور مفهوم الفحل، وهيمنته على الثقافة المجتمعيَّة؛ أصبح الفحل هو الشخص الذي يمتلك المال والنفوذ والسلطة والشهرة، ويستطيع أن يفرض رأيه أو سطوته على كلِّ من حوله، – فالفحل في الدراسة هو صاحب النفوذ القوي المهاب، لا يمارس سلطته كما هو سائد قديمًا على المرأة فقط، إنما انسحبت قوته على الجميع، وبدا المجتمع أمامه في حالة ضعف واستكانة، وأمام نمو فكرة الفحولة المجتمعيَّة، ازدادت فكرة الآخر، والآخر في الدراسة ليس الأجنبي المضاد للذات العربيَّة أو المصريَّة، الذي فرضته الظروف السياسيَّة والاجتماعيَّة والجغرافيَّة والحضاريَّة – ابن المجتمع ذاته، الذي يشترك مع الفحل في الوطن، واللغة، والتاريخ، وربما الدين، لكنَّه يقف ندًا للفحل أو تتعارض المصالح بينهما، فالآخر هو كل إنسان يعارض مفهوم الفحولة، أو الذي يسعى الفحل إلى فرض نفوذه عليه، لقد سعى الفحل لفرض سطوته على المجتمع بمفهومه العام، أو الخاص "الأسرة"؛ مما أدَّى إلى نشوب تمرُّد واضح من قبل الأبناء أو الأجيال الشابة التي سعت إلى تأكيد ذاتها واستقلاليتها؛ لتخرج بعيدًا عن عباءة مفهوم الفحولة الأبوية الأنوية.

يمنحنا تحليل الرواية –وفق الرؤية السوسيو ثقافيَّة – قدرة الوقوف على بنية النص الدلاليَّة، وقراءة الأنساق الثقافيَّة التي غزت مجتمع النص، وأنتجت رؤى جديدة وأفكارًا مستحدثة، وممارسات اجتماعية بدت غريبة عن طبيعة مجتمع النص وتاريخه، تلك الأنساق التي خلقت طبقات مجتمعيَّة جديدة، لها أفكارها وأساليبها في النهوض بنفسها مجتمعيًا وفكريًا.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن دور المبدع المعاصر في مناقشة الأنساق الثقافيَّة السائدة ونقدها؛ بهدف الثورة عليه والسعي إلى تطويرها، من أجل الانخراط في الركب الحضاري المعاصر، فالرواية بصفتها التنويرية تقصد إحداث قطيعة فكريَّة وثقافيَّة بين كلّ ما يتعارض مع الحضارة المعاصرة، ويدفعنا إلى لانغلاق حول الذات.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ الوصفيّ؛ للوقوف على البنية الاجتماعيَّة والثقافيَّة للنصّ الروائيّ؛ لذا قُسِّمت الدراسة إلى ستَّة مباحث، هي:

المبحث الأوَّل: مركزية الأنا المتعالية.

المبحث الثاني: الفحل.

المبحث الثالث: انهيار صورة الفحل.

المبحث الرابع: ثقافة الحقبة.

المبحث الخامس: ثقافة إلغاء الآخر.

المبحث السادس: تَمَرُّد الهامش.

وجاءت الخاتمة؛ لتكشف أهمية الخطاب الروائي التنويري في إحداث نهضة اجتماعيَّة وثقافيَّة عبر مشاركة المتلقِّي في التفاعل الإيجابي مع النص التنويري.

مركزيّة الأنا المتعالية

تعكس الحياة الأسريَّة لـ(حسن) وعلاقته بوالده صورة مجتمع النص، وصور حياته المختلفة، خاصة حياة الجيل الشاب، الذي يعاني من التهميش؛ بسبب تضخم الذات الأبوية السائدة في طبقات مجتمع النص كلها، غير مختلفة بين الطبقات العليا أو الوسطى أو الدنيا، فكل الطبقات تعاني من فكرة تضخم الذات وصناعة الفحل الأسري أو المجتمعي، لقد أصبح هذا النمط نموذجًا ثقافيًا مجتمعيًا عامًا.

رسَّخ الأب (والد حسن) الفحولية أو لخلق ذاته الأبوية للأسرة والمجتمع، وكانت النخبة الحاكمة والثقافية تبارك هذا الفعل، ويُقدِّمون كل السبل الناجعة للمعاونة في تضخيم الذات. وفي ظل هذه الحالة الثقافية المجتمعية؛ ارتفع صوت سلطة المال، وعلا نفوذ رجال الأعمال، ومعهم النخبة الحاكمة، وأهملوا – بفعل نهمهم في جمع المال والهيمنة – الأجيال الشابة / الأبناء / حسن.

أنتج النموذج الأبوي المتعالي فصائل بشرية متعالية على شروط الواقع والعقل والحق، وهذا أمر له أثره السلبي الخطير، بل إنه تحوَّل مع الزمن إلى نسق ثقافي صنع الذات الثقافية للأمة، وهذه الذات أضحى لها ما لا يجوز لغيرها؛ فهي فوق الشرع والقانون، والقاعدة هي مرجع لذاتها، مذ كانت الحجة لنفسها، يحتج لها ولا يحتج عليها، وباطلها حق، وإن رأت حق الآخرين باطلًا فلها ذاك[2]

كان والد حسن "أحمد حسن منصور" في مجتمع النص من أغنى أغنياء مصر، يملك كل شيء، فهو رمز قوي للأنا الذاتية المتعالية: بماله، وبالنجاحات الاقتصادية التي يحققها كل يوم، هذه النجاحات التي جعلته يتَوَحَّد داخل ذاته ولا يرى سوى نفسه وثروته فقط؛ لذلك أهمل أسرته وتحديدًا ابنه حسن " كان مشغولًا طول الوقت".[3] آمنت الأنا المتعالية بأن دورها ينحصر في تقديم المال؛ فاقتصرت مهمته على التركيز في تحقيق الأنا بكل صورها عبر النجاح الاقتصادي؛ فربط بين ميلاد ابنه وبين توسُّع مشاريعه؛ فصار الابن حسن مجرد أيقونة حظ "وكان حسن وشه حلو قوي على بابا، فمشاريعه كبرت أكثر، وبقي في مكانة عالمية، (...) حقول بترول، وشركات غاز، وبنوك ومقاولات، كان نفسه ابنه يشتغل معه ويتعلم منه، ويدير هو كل أعماله".[4] تعمَّقت الأنا المتعالية في شخصية أحمد كامل منصور عبر النجاحات الاقتصادية، وامتلكت الحجة على الجميع، ولم يعد هناك من يمتلك الحجة عليها، وأصبحت هي التي تضع شروط الواقع، والعقل والحق، وهذه الشروط لا بد أن تتلاءم مع الأنا المتعالية، ولا تتناقض معها، بل تسايرها؛ لأنها صاحبة السطوة العليا والمشكِّلة للنسق الجديد.

أراد الأب / الأنا المتعالية أن يقولب ابنه في قالب يريده هو، بمنطقه ورؤيته وتوجهاته؛ فأرسله للدراسة في إنجلترا دون وعي منه بطبيعة شخصية ابنه؛ لذلك كان فشل الابن طبيعيًا ومبررًا بسبب فقدانه للجوانب الإنسانية والعاطفية تجاه والده، وأسرته التي راحت تتماهى مع صورة الأب ومع ذاته وتفرض أحكامه وممارساته على الابن؛ فتَمَرَّدت نفس الابن

في إنجلترا وأصيب بـ"مرض الهوم سكينكس، شعور بالاغتراب رهيب، ودخل في مرحلة اكتئاب؛ لذلك رجع بسرعة، ولم يكمل دراسته هناك"[5] غلَّب الأب أنويته، ونسقه الثقافي الاجتماعي الذي فرضه بقوة سطوته الاقتصادية، ولم يفطن إلى حالة ولده أو إلى اختلاف الأجيال، لكنَّه آمن بأن ابنه لا بد أن يكون مثله، خاصة أنه منحه المال، فلمَ لا يكون مثله؟! وإن لم يكن مثله فلابد أن يكون "وكم نسأل أنفسنا: ولد يعرف الإنجليزية بطلاقة، وتَرَبَّى في ثقافة غَرْبِيَّة جدًا، ومع ذلك لم يقدر على التأقلم في إنجلترا؟! الطبيب النفسي قال لنا من فترة قصيرة جدًا: إنه ربما فقد الحماية، وحالة التدليل، والسند الذي يشعره بالأمان الفياض فاكتأب".[6] لخَّص الطبيب حالة حسن، وكشف لهم عن مسبباتها؛ لكنَّهم لم يفطنوا لها، وظلوا جميعًا متماهين مع صورة الأب صاحب الأنا المتعالية، التي تختصر كل شيء في القيمة المادية أو النفوذ، متغافلين أو متناسين الجوانب الإنسانية التي يحتاجها الإنسان "أنت عارف مصروفه كام، وعدد بطاقات الائتمان اللي في محفظته قد إيه"[7].

رغم معاناة الشاب حسن، فالرؤية المادية مهيمنة على تفكيرهم، تلك التي فرضتها الأنا المتعالية للأب، الذي خلق القوانين الأسرية، التي انطلقت مع هيمنة الرأسمالية، وتزاوج السلطة بالمال، الذي فرض وجوده على مجتمع النص كلّه؛ لكنَّ الابن حسن رفضها، وبدأ رحلة التمرد اللاواعي على هيمنة الأنا المتعالية / الأبوية، فبدأ الشعور بالاغتراب والغربة والجفاف العاطفي " طبعًا الولد يعاني جفافًا عاطفيًا عميقًا إضافة إلى أنَّ ضميره صاحي، مش عارف ازاي واخد باله من الفساد المحيط به واستغلال النفوذ"[8] يشعر الابن بكل ما يدور حوله، ويتمرد عليه، ويقاوم هذا النسق الثقافي، لكنَّه يواجه بالتبلُّد، فبدلًا من رده إلى حضن الأبوية من جديد، يواجه بقيم التعالي والهيمنة، والرغبة في حماية النفس.

لقد سعت الأسرة إلى حماية نفسها، وانشغلت بذلك، فتفاقمت مشكلة الابن، الذي لم يوفر له أحد الأمان والدفقة العاطفية التي يحتاجها، "وإما أن يتسرب شيء من الجهات أو الشخصيات التي نصَّرته؛ فيتحول إلى قضية تهزُّ بيتنا، وعائلة تُمثِّل كيان مصر كلها".[9] سادت روح الأنا المتعالية، وترسّخت داخل كل صاحب سلطة، فزوج الأخت "أخت حسن " لا يفكر سوى في طموحه الشخصي، وذاته العليا، دون الالتفات إلى الإصلاح، متجاهلًا أن سبب الأزمة هي الأنوية المتضخّمة، التي تتجاهل كلّ شيء ولا تحاول الإصلاح؛ لذلك تبقى قوانين الأنا هي السائدة، وتحتفظ بالقرار الأنسب لحل المشاكل، وهو العنف، وهذا ما أَلمحَ إليه زوج الأخت؛ ليجاري نسق تفكير الأب صاحب الأنا المتعالية "م يتبق سوى حلين الأول أن يقنعه أحد بالعودة إلى دينه، والثاني لا أريد أن أطرحه الآن"[10] أبت الأنا المتعالية الاعتراف بالخطأ، إنها لحظة تؤكد تعالي الأنا وعجزها عن فهم الواقع؛ فتلجأ للحلول الجاهزة، وتحميل المسئولية لآخر، يقوم بدورها، ويكون كبش فداء لها إن عجز عن الحل، والده صعيدي لا يَغُرّك ما تراه، فهو في النهاية يحمل دم الصعايدة في عروقه، والحل الصعيدي واضح هنا، الذي يجلب لك العار تعمل معه إيه"[11] تستدعي الأنا المتعالية نسقًا ثقافيًا آخر؛ ليعينها على تشكيل نسقها الثقافي الاجتماعي المتعالي العنيف، الذي يرفض أي منطق سوى منطقه، إنه يُصدِّر الأزمات للآخرين، وتتعالى أنساقه الثقافية عليها، رافضة المواجهة؛ لذلك تتبني المشاكل دون حلول، وتتفاقم حتى تعلو الأنا المتعالية، وتؤسِّس لمنطقها، مُقدِّرة الحلول العنيفة أو المسكِّنات التي تؤجل لحظات الانهيار.

صارت الأنا المتعالية نسقًا ثقافيًا عامًا داخل مجتمع النص، فكل من يستطيع أن يُوَظِّف هذا النسق لخدمة مصالحه يفعل ويبالغ، ولا فرق هنا بين رجل أو امرأة، فأميمة زوج الشيخ حاتم تتعالى عليه، وتؤكِّد هيمنتها، بإخفائها سفر ابنهما عمر عنه، وتتعامل معه "حاتم " بعلى أنَّه طفل لا بد أن يسمع ويُنفِّذ، ولا حق له في مطالبته بحقوقه، إننا هنا أمام امرأة رسَّخت لنسقها الثقافي المتعالي، ففرضت قانونها الخاص وشروطها، وأجبرت الشيخ حاتم على أن يخضع، بوصفه تابعًا، "على فكرة عمر بيسلَّم عليك، كأنما منحته أُكسجين روحه: عايز أكلمه، أرجوكي يا أميمة"[12] لقد تعالت ذات أميمة فوق الإنسانية، فوق مفهوم الأُبُوَّةِ والأمومة، وأثبتت في تعاملها مع زوجها أنها فوق قانون الطبيعة، وفوق الفطرة الإنسانية، فذاتها المتعالية التي استمدتها من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، التي انخرطت فيها بحكم وضع زوجها، جعلتها تمتلك الحجة في ذاتها ولذاتها "قامت واقفة عنه: لا داعي لأذكِّرك بما لا يجب أن تذكره يا حاتم"[13] أجبرت أميمة حاتم على الانصياع لقانونها المجْحِف، بعد أن صنعت ذاتها المتعالية، وبالغت في أنويَّتها، بعد أن امتلكت القوة التي فرضت بها سطوتها، وتجاهلت المشاعر الإنسانية "م تفهم أميمة حزن يعقوب الذي أصابه، لم يكن انهيارًا أو ضعفًا، بل هو حزن يعقوب لما ألمَّ بيوسف بفقد الابن وغياب قرة العين"[14].

هذه سمات ثقافيَّة إذا نشأت وترسَّخت في المجتمعات البشرية، فإنها تتجاوز كل الحدود: الأفكار والقيم، لا يحدها إلاَّ نسقها المتعالي، ووجودها الذي لا يقبل التعايش أو المجابَهة؛ فلم تفهم ذات أميمة وثقافتها حزن الأب حاتم على ابنه، ولا تلك الفتنة التي اخترقت قلبه في تلك اللحظات البائسة التي مرَّ بها، لم تفهم كل هذا؛ لأن الأنا المتعالية بداخلها لا تُبصر إلا نفسها، "أنقذ الله عمر من الموت، لكنَّ ما جرى أمات علاقته بزوجته استصغرته أو استضعفته"[15] أصدرت الأنا المتعالية لأميمة قراراها الذي نتج عن تصَوُّرات ذهنية، وجَّهَها فيها نسقها الثقافي المتعالي، الذي صنع داخلها نموذجًا استبداديًا، لا يقبل التفكير أو التطوير، أو حتى فهم الجوانب الإنسانية والاجتماعية لطبائع البشر، لقد رسمت تلك الذات لأصحابها خطوطًا لا يجب تجاوزها، وتَصَوُّرات لا بد أن يسير الجميع من خلالها.

نجحت الأنا المتعالية في صناعة نسقٍ ثقافيٍ عامٍ، وطريقة تفكير، تُفكِّر بها الطبقات الاجتماعية التابعة فـ"أفكار الطبقة الحاكمة في كلّ عصر هي الأفكار المسيطرة؛ بمعنى أنَّ الطبقة التي تسيطر على القوى المادية في المجتمع هي في الوقت نفسه مسيطرة على القوى الفكرية والعقلية؛ إنَّ الطبقة التي يكون تحت تصرفها أدوات الإنتاج تمتلك في نفس الوقت الإنتاج الفكري والعقلي"[16]؛ لذلك صار النسق الثقافي لأسرة أحمد كامل منصور هو النسق الثقافي للمجتمع، فلقد تبَنَّت بقية الطبقات الأخرى هذا النسق.

الفحل

"نتج عن ترسيخ البنية الفكريَّة الماضويَّة للعقل العربي، تواطؤ غير معلن بين السلطة والنظام الأبوي؛ لأنَّ كليهما ذو نزعة استبدادية قمعية وقفت حجر عثرة في مسار الإصلاح والتحديث والتقدُّم الاجتماعي، وولَّدت عجزًا عن توليد تيارات اجتماعية وثقافية نقدية فاعلة، لها القدرة على تغيير العلاقات الاجتماعية والسياسية التقليدية، وتجاوزها إلى صياغة مشروع نهضة تحديثيَّة، يمتلك مقومات البقاء والتطوُّر والاستمرارية"[17]، ونجح هذا العجز والفشل في إظهار دور

الفحل بكل صوره، والفحولة كلمة اصطلاحية تدل على تصَوُّرات ذهنية وفكرية وثقافية، لشخص ما يكتسب وجوده الفعلي من التَّصَوُّرات التي أُشيعت عنه، وأكسبته هالة كبيرة مكَّنته من ممارسة سلطانه العملي على أسرته أو قبيلته أو عشيرته أو مجتمعه، بعد أن صار صاحب قوة ثقافية، تَحول دون التمرد عليه، ويدفع المجتمعات إلى تقديسه أو الخوف من بطشه، وتلك التَّصَوُّرات الثقافية هي التي جعلت من الفحل "قيمة معترفًا بها من الجماعة بكل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من دلالات الاستبداد، وهي سلطة تأتي بها الثقافة؛ لتحمل الآخر على طاعته واحترامه"[18] وهذا يعني أن المجتمعات هي التي تصنع الفحل، وتضمن له السيادة عبر مقولة الغلبة للأقوى، التي يُوظِّفها هو في خلق جو من الرهبة والخوف والاستبداد، صانعًا مجتمعًا خاصًا له، يَبرز من خلال فرض سيطرته ووجوده، بالقوة والطغيان، وتُعَدّ صورة الفحولة المتَنَوّعَة هي التي شكَّلت منطق الخطاب الروائي في رواية مولانا، فقصد الخطاب الروائي رسم صورة مُتَنَوّعَة لتطوُّر مفهوم الفحولة أو الفحل في مجتمع النص، من خلال تَعَدُّد أنساقه الثقافية والفكرية، وتَغَلغُله داخل الفرد والمجتمع والمؤسسة.

تؤَكِّد الرواية صورة الفحل الذي سرعان ما أصبح صورة مُقَدَّسة؛ فالفحل الروائي لم يعد كسابقه "الفحل" الذي يجب أن يتميز بالشجاعة والكرم، والإقدام والفروسية – حتى لو كانت مزعومة ومشكوكًا فيها- فلقد تراجعت الصورة الثقافية للفحل التراثي، وحلَّت محلها صورة الفحل الجديد، الذي يفرض وجوده بامتلاك المال، والقوة، والسلطان. إنَّ مفهوم الفحولة صار يستمد قوة وجوده بالتعبير عمَّا يملك من أسباب الثراء، والجاه والسلطان، فلقد تراجعت تَمثُّلات الفحل التراثي وحلّت محله صورة عصرية تُرسِّخ للهيمنة؛ فالكرم حلّ محله مآدب العمل، وهدايا المصالح، وتزاوج المال والسلطة والدين، فكل شيء أضحى له مقابل لا بد أن يتحصَّل؛ لذلك رصد الخطاب الروائي صور الفحولة المتَنَوّعَة منذ لحظة البزوغ حتى لحظة الأفول داخل مجتمع النص.

1 –الفحل الرأسمالي

تعاني المجتمعات من مشاكل ثقافية حضارية، تعكس حالة التدني الواضح في منظومة القيم، وتَغَيُّر المفاهيم الاجتماعية والثقافية، التي تضمن استمرارية النمو الفكري والحضاري لتلك المجتمعات "فأي إخفاق يُسجِّله مجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية، أو بعبارة أعم التعبير عن الأزمة التي تمرُّ بها حضارته في تلك المرحلة من تاريخه، وإننا نستطيع، بل يجب علينا لتوضيح الأشياء من الناحية الفنية، الوقوف عند نتائج الأزمة الثقافية أو بعض نتائجها عندما تبلغ حدَّها الأقصى في حياة الفرد من ناحية وفي حياة المجتمع من ناحية أخرى.[19]

أوضح الخطاب الروائي لرواية (مولانا) نتائج الأزمة الثقافية التي يعاني منها مجتمع النص، وأنتجت تزاوج رأس المال والسلطة، والدين، وأمست العلاقة بين الجميع مؤسَّسة على المصالح الضيقة، التي لا تستهدف سوى تبادل نِسَب الثراء، فرأس المال يُقدِّم عطاءه المادي للسلطة؛ كي تحمي نفوذه الاقتصادي، وحماية تقدمه نحو الثراء والاستحواذ على المشاريع المهمة، والتَّحَكُّم في مقدرات المجتمع الاقتصادية؛ ليصير فحلًا ماديًا قادرًا على الهيمنة، وخلق قيمه الجديدة للمجتمع، كما أنه في حاجة لرجال الدين الذين يباركون هذا الثراء، "يعرف أن ستة من الشيوخ الدعاة المعممين وأصحاب البدل

الإفرنجية موجودون في احتفال أبو حديد الليلة، ولا شك فالرجل كريم لا تدخل إليه إلا وقد نلت أجر القدوم، ولا تخرج من عنده إلا مصحوبًا بالخيرات الحسان، من أجل الخروج وكلهم نجوم قنواتهم وفضائيَّاتهم".[20]

استثمر الفحل الرأسمالي حالة التزاوج بين رأس المال ورجالات الدين؛ ليفرض وجوده وهيمنته، عبر المنح والعطايا؛ حتى إن مفهوم الكرم تغيَّر، فالكرم تحوَّل لمنح وعطايا وهدايا، ذات صبغة مصلحية، فالمصالح هي التي تحكم العلاقة، والكرم صار رشوة مُبَطَّنة ؛ ليواكب فحولة رأس المال "أبو حديد يرضي جميع الأذواق وكل المذاقات، ولا يترك تجمعًا إلاّ ويجمع، ولا يدع فرصة إلاَّ وينتهز، وهو راشٍ خبير، متمكِّن ومحترف من هؤلاء الرشاة الذين لا يعطون مرتشيهم أي إحساس بمسك ذلة أو كسر عين، بل يرشونهم ثم يترجون منهم الموافقة والاستجابة، فهو مهلل للشيوخ ومُكبِّر لهم، ومُقبِّل يد بعضهم".[21] يعرف الفحل أنه في احتياج دائم إلى رجال الدين؛ لذلك يتقرب منهم بهداياه وعطاياه، يستعلي فوقهم بما يملك، ويضعهم في بوتقته المادية؛ ليضمن خضوعهم له، يأتي الرد سريعًا من الشيوخ الذين لا يملكون قول الحق، في وجه الفحل الرأسمالي: "بذمتك الراجل بيأكِّلنا وبيكرِمنا آخر كرم، وعايزني أقول إن انتخاباته كلها مزورة"[22] استسلم الشيوخ لنزواتهم، وشهواتهم، وانساقوا خلف الفحل الرأسمالي، يؤيدونه ويدعمونه، "ويصبون جل اهتماهم على الفقراء يبحثون عن زلاتهم، وينغصون عليهم عيشتهم، وينذرونهم بالويل والثبور، وسبب هذا التحيز في الوعظ ... راجع إلى أنَّ الواعظين كانوا ولا يزالون يعيشون على فضلات موائد الأغنياء والطغاة"[23].

أُصيب المجتمع بعيوب نسقية خطيرة؛ أنتجت عيوب الشخصية في مجتمع النص، وأوجدت نموذج رجل الدين الشَّحاذ، المنافق الطمَّاع، الذي أسهم بدوره في ترسيخ نسقية الفحل الرأسمالي. لم تتوقف ثقافة التزاوج عند رجالات الدين، بل شملت رجالات السلطة، فكانوا هم الحلقة الأهم في عملية التزاوج تلك، فهم الفاعلون الحقيقيون في خدمة الفحل الرأسمالي؛ لذلك كان يتَعَيَّن عليه أن يُغدق عليهم، وأن يجمعهم جميعًا؛ تأكيدًا لعلاقات المصلحة المستمرة؛ حتى لا تنهار شبكة المصالح الفحولية التي خلقتها ثقافة الحقبة "اتسعت لهم القاعة الآن من نواب البرلمان المنتمين للحزب الحاكم، الذين شكَّلوا دائرة تبادلوا فيها الحوارات المُقْتضَبة، والمعلومات المقضومة، بينما ظهر عدد من لواءات الشرطة، الحاكمين لأمن المحافظة، والمتصلين مع خالد أبو حديد بقبلات المصالح والنفوذ والمال المحْتَسَب"[24].

هيمن الفحل واستعلى، واستطاع أن يجذب الجميع ناحيته؛ فلقد صار بكرمه العصري "رشوته" الفحل القوي الذي يرغب الجميع في إرضائه، "كثير من ضباط ورجالات المباحث واللواءات بزيّ مدني، يعرف بعضهم من صور تظهر في مخيلته، وبعضهم الآخر قابله في محافل كثيرة، فضلًا عن وجود وجوه من وزراء، ومحافظين حاليين وسابقين، يحضرون تمسكًا بعلائق النفوذ، وتماسكًا في علاقات السلطة وبإغراءات بذخ أبو حديد، الذي يشري ويرشو ويبيع ويشتري بلطف وطراوة، تنزع عن الجرم ذنبه، وتمنحه حلال عاديته الأليفة".[25]

للفحل دراية بالنفوس البشرية، وبكيفية التعامل معها، ومع الراغبين الطامعين، فهو يُحَوِّلهم عبيد ماله، لكنَّه لا يشعرهم بذلك، بل يبالغ في تكريمهم، وإثبات فضلهم عليه "وكان كلما صافحتهم عيونه أو اقترب منهم؛ نادى على الشيوخ؛ كي يسمعوه وهو يقول لهم: والله يا سادتنا وشيوخنا ما في فضل بعض فضل الله سبحانه وتعالى على شخصي

إلاَّ فضل هؤلاء الرجال، ويشير إلى السيد اللواء ... فيردون بتمتمة من يعرف تلقي النفاق؛ لينافق: ده أنت اللي خيرك وفضلك على البلد كلها يا خالد باشا".[26]

طغت نسقية ثقافة الاسترزاق على الساحة المجتمعيَّة، فأضحت أهم نسقية ثقافيَّة تُحِّرك مجتمع النص النخبوي، هي ثقافة جني ثمار ذلك التزاوج الثلاثي: المال، والدين، والسلطة، هذا التزاوج الذي خلق صور التكاذب، والمنافقة، والشحاذة.

2-الفحل الديني "فحولة الدعاة الجدد"

بزغ نجم الفحل الديني في زمن مبكِّر جدًا، وذلك عندما ضعفت الحضارة، وتخلَّفت الأمة عن مواكبة النهضة العلمية، ورضيت بأن تعيش تابعًا حضاريًا في تلك اللحظات المتوترة؛ نجح وُعَّاظ السلطة وأنصاف العلماء في خلق توتر مزعوم بين الدين والمعرفة؛ فبدأت الآفاق العلمية والفكرية لأبناء الحضارة العربية في الانسداد، واحتكر الوُعَّاظ الثقافة والدين، وصاروا هم المرجعية الفكرية للأمة، ولمزيد من الهيمنة؛ بدأت عمليات التوجيه المنظم، وخلق حكايات مثالية للتاريخ غير موجودة، مارسوا من خلالها ضغوطهم على المجتمع؛ ونجحوا في خلق فحولة خاصة بهم، تمنحهم الهيمنة والاستعلاء، عبر زعم امتلاك المعرفة والحقيقة.

كان مجتمع النص بحاجة إلى رؤية تنويرية، تكشف مزاعم الفحولة المهيمنة عليه، فكرًا وثقافةً وواقعًا؛ لذلك سعت الرواية في رصد صور الفحولة الدينية، والتنافس الشديد بين الدعاة الجدد، بهدف التَّرَبُّع فوق عرش الفحل الديني، وكان طريقهم في ذلك هو التزاوج بينهم والمال والسلطة، ووسيلتهم هي القنوات الفضائية، التي تريد خلق مجتمع ديني مُدجَّن.

منذ اللحظات الأولى تبدأ الفضائيَّات في محاولة صناعة فحل ديني يستطيع أن يحفظ لهم تواجدهم الرأسمالي، ويحقق لهم نجاحاتهم في المجتمع بمختلف طوائفه، إنهم يخلقون فحلًا دينيًّا يستعلي فوق الناس بما يقول، ويفرض سلطته عليهم؛ ومن ثم يستطيع أن يجني المال الوفير، فلقد صارت الكلمة فحلًا يضمن الثراء لصاحبه، والبقاء ضمن منظومة الفحولة العليا. "أقنعوه أنَّ محاضراته وبرامجه التي يقف فيها وسط جمهوره أو يقعد فيها الشباب أمامه في مدرجات، ويحكي، ويقص عليهم، ويروي لهم، ويعظ فيهم؛ تُضيِّق جماهيره، وتقصرها على الشباب فقط، إنما برنامج يومي يتَلَقَّى أسئلة المشاهدين من كل الأعمار والأجيال والطبقات، سينتقل به إلى دائرة أوسع"[27] قصد شيوخ الفضائيَّات، الدعاة الجدد الانتشار والجماهيرية، ليس حبًا في نشر العلم والمعرفة، وتعليم المجتمع، إنما بهدف الثراء، الثراء وليس لقمة العيش فقط. "هذا العالم الذي يُحوّله من شيخ إلى مُنتِج فني، ومن داعية إلى نجم تلفزيوني، هناك استحقاقات لا بد أن يدفعها، كي تستمر النجومية، وتدفق مالها ورزقها".[28]

اشتد الصراع بين الدعاة الجدد حول عرش الفحولة الدينية، وتحوَّل إلى حرب بينهم من أجل الانفراد بلقب الفحل وصفاته، "هل تعرف أنهم يحاربونني في أكل عيشي ورزقي، ليس عندي سوى هذه البرامج رزقًا (...) حرب بقه على البرامج، وخناق بين المحطات ووكالات الإعلانات، وكله يحدف للتاني".[29] يرصد الخطاب الروائي الصراع الشديد بين الدعاة الجدد من أجل حصد ثمار الفحولة الدينية، ويُبرز دور رأس المال في خلق مجموعة الفحول الدينيين، "لكن خالد

أبو حديد عمل معي حركة اصطأصدني وحطني في قفصه، من يومها وهو ممول وراعي برامجي (...) فرق معايا جدًا هذا الموضوع ودخّل لي دخلًا بالملايين، وكبّرني قصاد كل المحطات والشيوخ، مما جعلني انصهر لأبو حديد تلقائيًا".[30] يضع الفحل الديني نفسه بين نسقين ثقافيين مختلفين؛ لكنَّهما يتضافران من أجل تحقيق هدف واحد، هو الهيمنة على المجتمع، عبر آلياتهما التي تختلف، لكنَّها لا تتعارض، تعلو وتهبط، لكنَّها تسير بنجاح في وجهتها، فالدعاة الجدد ينقسمون إلى مجموعتين، إحداهما تخضع للسلطة الحاكمة تعبّر عنها، وعن تطلعاتها وتوجهاتها، والأخرى تخضع لسلطة رأس المال ونجاحاتها الاقتصادية، التي تسعى إلى الحفاظ عليها، عبر توجيه الخطاب الديني، وصناعة الفحل الديني، الذي يدعمهم. فالخطاب الديني المدجَّن المحبب للفقر، والرضا بالبلاء والابتلاء، والركون للاستسلام، هو الخطاب المؤسِّس لمنطق رأس المال والفحول الماديين أو الرأسماليين الجدد.

كان الشيخ فتحي المعداوي يخضع للنسق الفحولي الأول، الخاص بالسلطة الحاكمة، فهو قد سعى إليها منذ شبابه، وصار فحلًا دينيًّا يتحدث بلسانها، وسعى إلى ترسيخ مكانته عبر الترويج لتوجهاتها، "بات عينًا على أصحابه ممن تشده أفكار التطرف"[31] أرضى الفحل الديني / الداعية الجديد السلطة وسعى إلى العمل معها، والانصياع التام لتوجهاتها؛ لذلك استطاع الترقي؛ فتحوَّل من فقير إلى تابع ثم إلى فحل ديني وداعية جديد، يُنصت له الناس، ويحرِّك الجماهير بكلماته، "وكان التعيين في الجامعة (...)، وظهور قوي في إذاعة القرآن الكريم، ثم مشاركات في برامج التلفزيون الدينية، حتى إنه صار صاحب يوم في برنامج حديث الروح (...) قبل أهم نشرات التلفزيون الإخبارية (...)، بل كان له جمهور يحبه فعلًا ويُصدِّق كلماته ويمشي وراءه".[32]

تنشب صراعات منظمة ومدروسة بتنسيق بين الدعاة الجدد / الفحول؛ تهدف إلى خلق مجتمع في حالة عداء مستمر؛ يصعُب معها خلق رأي عام موحد، تجاه أية قضية، سوى القضايا التي يلعب فيها الفحول دورًا مهمًا في خلق الرأي العام الموحد؛ حتى تبقي قيد السيطرة والانقسام، والتوجيه "وجد أبو حديد يدفع الكلام دفعًا إلى إرضاع الكبير، كان يريد أن يتسلى ويسلّي لواءاته وضيوفه ببرنامج من تلفزيون الحياة، يجمع شيوخًا بينهم من الخلاف الشخصي أكثر مما بينهم من خلاف فقهي، مدربين على تلبية حاجة شهبندر التجار"[33] لقد تخلى الدعاة الجدد عن دورهم الحقيقي في تنوير المجتمع دينيًّا والإجابة عن تساؤلاتهم، وكشف غموض ما لا يفهمون، لقد تحوّلوا إلى سلعة في يد من يدفع لهم، ويتاجر فيهم، كي ينالوا سلطة الفحل الديني ونفوذه؛ لذلك كان الخلاف بينهم لا يُعبّر عن تباين وجهات النظر الفقهية، بقدر ما كان خلافًا شخصيًا، وصراعًا حول منصب الفحولة "يحترفون تلك المهنة التي لم تخل منها فترة، ولم تتخل عنها حقبة، مهنة وُعَّاظ السلاطين"[34] لقد وجد أصحاب السلطة ورأس المال في الدعاة الجدد "خير معوان لهم على إلهاء رعاياهم وتخديرهم، فقد انشغل الناس بوعظ بعضهم بعضًا فنسوا بذلك ما حل بهم"[35] لقد غيَّر هؤلاء منطق الدين ووجهته، بقصد أو بغير قصد؛ فصارت الدعوة على أيديهم صراعًا سخيفًا، فانحرفوا بالدين "إلى منطقة المراهقين والنسوان، ونقلوا أهمية البرامج الدينية من التلفزيون الحكومي إلى الفضائيَّات الخاصة".[36]

3–الفحل الأعلى

تَعَدَّدت أنواع الفحولة في مجتمع النص الروائي، وتنوَّعت لكونها تُشكِّل نسقًا ثقافيًا جديدًا، يقوم على فكرة الاستعلاء والهيمنة، وتوجيه المجتمع إلى الخضوع للفحل الأعلى، فأدوار الفحول الأخرى كانت كلها تسعى إلى خدمة الفحل الأعلى، وتنفيذ توجيهاته والعمل بإرادته، فهو صاحب المشيئة النافذة، "في هذه الحالة هنالك قضية اختلال أساسي للتوازن تكون معه العلاقة بين الفكرة والشخص مُرتَهَنة لشخص يستحوذ لصالحه على سائر الروابط القدسية في عالم الثقافة، والواقع أن هذه العلاقة تمازجها الأسطورة، وتصبح مُخادِعة في شكلها المَتَطَرِّف؛ إذ تقدم الفكرة الْوَثَن"[37] أو نموذج الفحل الأعلى.

تبدأ شخصية الفحل الأعلى ابن الرئيس الذي يملك كل شيء في الظهور مع مشكلة الشيخ الصوفي مختار الحسيني، ويأمر بممارسات قهرية ضده، دون أن يظهر، أو يُذْكَر اسمه مطلقًا؛ وذلك لتأكيد فحولته العليا، التي تهيمن وتحلِّق فوق كل حدث في مجتمع النص، فالرواية بأحداثها تتحرك من أجل إثبات فحولة ابن الرئيس العليا، التي تبدو وكأنها تقول للأمر كن فيكون.

يشير الخطاب الروائي من خلال الممارسات العنيفة تجاه الشيخ مختار الحسيني إلى الفحل الأعلى الذي لا يرد له أمر، أو طلب، أو فكرة "هذه التصرفات لا تعني أن شخصًا مهمًا أهمية عادية يعاديك، بل هناك من هو أهم وأكبر وصاحب صوت مسموع، بل شخص همسه مسموع وليس صوته فقط هو من يقف وراء هذه الأحداث"[38].

فرض الفحل الأعلى وجوده بفعل الثقافة المهَيْمِنة على مجتمع النص والمترسِّخة فيه عبر تاريخها الطويل، تلك الثقافة هي التي مهَّدت الطريق أمام تَغَلْغُل النسق الفحولي الأعلى داخل المجتمع، فهذا المجتمع بأمراضه النفسية والحضارية، يحتاج إلى إيجاد نموذج الفحل الأعلى أو يسعى إلى ذلك الفحل الأعلى، الذي ينظر إليه بإكبار متوارث، رغم طغيانه وجبروته، وكأن مجتمع النص يشعر بنقص شديد وعدم استقرار إن هو فقد الفحل الأعلى؛ لأنه مجتمع تَرَبَّى على مفهوم الأبوية العليا، التي يتأثر بغيابها، ويفقد تماسكه؛ لذلك يستغل الفحل الأعلى هذا النسق الثقافي في ممارسة فحولته على شيخ صوفي مسالم؛ لذلك يتساءل حاتم عن سبب هذه الممارسات " أنت مسالم وطيب ومخلص لصمتك، لا تتكلم في السياسة، ولا تتحدث عن الحكم ولا سلطة"[39] لا يُفَرِّق الفحل الأعلى بين مسالم أو مشاغب، معارض أو مؤيد، فهو يسعى إلى ضمان هيمنته، وإعلانها على الجميع، فالكل لا بد أن يخضع وينفذ أفكاره ونواياه، التي تظل حبيسة خياله، إنه يستعلي فوق الجميع، ويريد منهم أن يُنفِّذوا أوامره دون أن يفصح عنها، إن "هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة – الشخص، التي تتطلب عند التَّطَرُّف إلى علاقة فكرة – وثن"[40] وبفضل تلك العلاقة المنجرفة نحو التَّطَرُّف، أو الهوس الفحولي مارس الفحل الأعلى نسقه الثقافي تجاه مجتمع النص الروائي؛ كي يثبت وجوده، وقوته موظفًا فحوله المجتمعية والدينية، في تنفيذ رغبته تجاه الشيخ مختار الحسيني، كان حاتم الشناوي يتساءل من وراء تلك المضايقات العنيفة، للشيخ البسيط "هَبَّ حاتم مفزوع الشحن تمامًا من الاحتمال وقال: مَن وراء كل ذلك يا مختار؟ رد مختار في حزن وحسم: صاحبك!" [41] من جديد يتجدد الصراع بين المقدَّس والْمُدَنَّس، الذي يتخذ أقسى أشكاله في العنف الدموي، "كما

يقول ابن خلدون فإن العنف والقهر، هما من آثار الغضب والحيوانية"[42] فالعنف هو وسيلة الفحل الأعلى في تثبيت أركان فحولته، وتحقيق طموحاته، التي وظَّفت كل أركان الأنساق الثقافية السائدة لذلك، وفي خلق أنساق ثقافية جديدة، مستغلًا سطوة الفحولة المؤسسية في تحقيق رغباته.

لقد أصبح الفحل الأعلى / ابن الرئيس في مجتمع النص بمثابة الوثن المقدَّس الذي لا يجرؤ أحدٌ على النطق باسمه، فهو مرتبط بالموروث الشعبي المقدَّس، الذي يخاف ذكر اسم الشيء المخيف، حتى لا يحضر، فهذا الشيء يملك مقدرة الحضور والتشكُّل لمجرد ذكر اسمه، لقد نجح الفحل الأعلى في قهر الوعي الإنساني للشيخ مختار الذي تحاشى ذكر اسمه، واكتفى فقط بكلمة "صاحبك" التي تصف مدى الخوف والرعب المتَمَكِّن في نفسه.

"شعر نادر بالفزع – لا أرجوك طالما هو يريده سرًا، ولا يرغب في معرفتي بما جرى، فلا داعي أن تقوله (...) صح يا مولانا وأنا خايف عليك أيضًا، أيضا ماشي يا نادر، عمومًا المسألة تستاهل الخوف فعلًا".[43]

بات الجميع يخشون الفحل الأعلى: أصدقاؤه أو المقربون منه؛ لأنهم يعرفون أنه لا يرضى عن أحد ولا يُقرِّب أحدًا، ولا يحفظ ودًا ولا صداقة لأحد، فكل ما يُحرِّكه هو مصلحته العليا، تلك التي تأسست عبر تَمَكُّن فحولته العليا وتحليقها فوق الجميع.

انهيار الفحل

كان الخطاب الروائي يبرز صور الفحل المتَنَوِّعَة داخل مجتمع النص؛ ليؤَكِّد صعود مفهوم الفحولة وتَغَلْغَلَه داخل الوعي الجمعي للمجتمع، وتَقَمُّص الكثيرين لهذا المفهوم وتطبيقه على أرض الواقع، موظفًا ما يملك من سلطة أو مال أو منزلة دينية مصنوعة عبر وسائل الإعلام والفضائيَّات؛ لتسهم بشكل كبير في صناعة ظاهرة الفحولة الدينية أو الدعاة الجدد، الذين يخدمون السلطة ورأس المال عبر صناعة عالم مغاير للواقع، ومطالبة مجتمع النص بالحياة على الهامش طمعًا في الجنة الموعودة، كان الخطاب الروائي يرصد تلك الظواهر الثقافية الاجتماعية؛ ليقاومها، ويكشف عوارها الذي يؤدي إلى صراعات مجتمعية، أو انهيار في منظومة القيم؛ لأن ظهور مفهوم الفحولة وقدسيته يخلق الاستبداد الذي بطبيعة الحال يستشري داخل المجتمع؛ ليتحوَّل المجتمع إلى بؤر صراع؛ ينتج عنها ما يعرف بالفحل المستبد، الذي يفرض هيمنته على بقية أفراد المجتمع، مما يؤدي إلى ظواهر الظلم المجتمعي أو العنف المتبادل بين الأفراد مما يهدد السلم الاجتماعي؛ لذلك سعى الخطاب الروائي إلى هدم منظومة الفحل الحضاري الذي توارثته المجتمعات منذ قرون مضت. إننا من خلال مجتمع النص أمام جدليَّة اجتماعيَّة ثقافيَّة سعت إلى هدم هذه المنظومة التي تتنافى ومتطلبات العصر الحديث الحضارية.

لم يكن الفحل الذي صوَّرته الرواية فحلًا حقيقيًّا، يستمد قوته من ذاته أو بممارساته التي تجعل منه فحلًا يملك القرار، بل كشفت الرواية أن الفحل المجتمعي لا يملك أية مقومات حقيقيَّة، صنعت منه، صاحب مال أو سلطة أو علم، إنما هو مجرد صنيعة مؤقتة، لظرف مؤقت، سرعان ما ينهار عند أول مشكلة مهما بلغت من الضعف والهشاشة أو القوة والجسامة.

انهار الفحل الرأسمالي سريعًا وتنصَّل من بعض أفعاله السابقة خوفًا على نفسه، وعلى ثرواته التي امتلكها عبر المصادفة: فخالد أبو حديد رجل الأعمال صاحب النفوذ انهار سريعًا أمام خبر القبض على الشيخ مختار الحسيني بتهمة التَشَيُّع، كان الانهيار والخوف يعكس حالة الضعف الحقيقية الكامنة داخل الفحل الرأسمالي، الذي يعلم في قرارة نفسه أنه مجرد صنيعة أو دُمية في يد من صنعه؛ ولأنه لا يملك قرارًا؛ بادر بالتَنَصُّل من الشيخ مختار الحسيني، وتبرأ من دعوته له في مآدبه.[44] لقد عَرَّى الخطاب الروائي الفحل الرأسمالي المزَيَّف؛ ليؤكد أننا لسنا في زمن الفحولة، وعلينا أن نكون أبناء مخلصين للرؤية الحضارية العصرية، ولا نتمسك بتقاليد وأفكار قديمة توارثناها.

لم يسقط قناع الفحولة عن الفحل الرأسمالي خالد أبو حديد فحسب، لكنَّه سقط عن فحل الدعاة حاتم الشناوي، الذي راح يكرر لأبيه ولنشوى أن صديقه مختار الحسيني ليس بصديقه، ولم يكن يومًا بصاحبه، إنه النكران والهروب من المواجهة، ففحل هذا الزمان، استبدل بصفات الشجاعة والمروءة والشهامة، الجبن والنكران والهروب، لقد كشف النص زيف أيقونة الفحل الديني، الذي صار جبانًا يتخلى، بسهولة وتحت وطأة الخوف، من ارتحال الفحولة أو صفاتها عنه "نم قليلًا يا حاتم، شكلك متأثر قوي بحكاية صاحبك مختار، رد حاتم بسرعة وبعصبية: ومن قال لك إنه صاحبي"[45] يبلغ التوتر مداه، عندما يُذكر اسم صديقه، ويبالغ في الإنكار "ومالي أنا بمختار قالها خائفًا فعلًا، وتترنح الحروف؛ فتتفكك جملته"[46] أثبت خطاب الرواية المكثَّف أن كل فحول المجتمع أو نصفها، هم فحول من ورق، صنعتهم الظروف، دون أية مقومات نفسية أو وجدانية أو إنسانية تؤهلهم لذلك؛ فالفحل الشيخ سرعان ما انهار خوفًا وطمعًا، وسبقه كذلك رفيق فحولته الرأسمالي خالد أبو حديد، زالت أصباغ الوجهة الاجتماعية الزائفة، واستعلاء الفحول المصطنع؛ فتهاوى عرشه، ومع تهاوي فحل الدعاة الجدد الشيخ حاتم، والرأسمالي خالد أبو حديد، ومع هذا الانهيار استطاع الخطاب الروائي أن يهدم منظومة الفحولة، ويجردها من كل عناصر الاستعلاء والزهو، ويتركها للمتلقي ليتعرف جيدًا على حقيقتها، عجزها وزيفها، يعيد الخطاب الروائي إنتاج ثقافة مجتمعه، عبر تضافر الخطاب مع المتلقي؛ لينتج رؤية جديدة، وفكرًا جديدًا، يسهم في استثمار اللحظة الراهنة من أجل نهضة المجتمع وتحطيم تابوهات الفحولة الزائفة.

ثقافة الحقبة

يرصد خطاب الرواية الثقافة الهجين أو اللاثقافة التي غزت المجتمع "مجتمع النص" مع بروز التحولات الكبرى في العالم، وصعود مفهوم العولمة، ومحاولتها خلق ثقافات جديدة تُرسِّخ لها، وتساعد على تَغَلْغُلِها في المجتمعات، فالعولمة تقوم على الإضعاف النسبي للدولة / الأمة، وإضعاف الاقتصاد القومي في سباق عولمة اقتصادية وثقافية، تغيب معها الوظيفة الاقتصادية، وتحل محلها القضية اللاثقافية، اللااقتصادية الهادفة إلى تأكيد الذات على حساب الوطن / المجتمع / الثقافة"[47] وستظهر فئات ثقافية جديدة، تسعى بقوة إلى تأكيد هوياتها الثقافية؛ موظفة حالات الثراء الطارئ، بوصفها وسائل قوية لخلق الهوية الثقافية الجديدة، أو ثقافة الحقبة، التي لا ثقافة لها ولا قيم ثابتة تحكمها، فتهيمن قيم (الجهل، والمال، والعشوائية) أو بمعنى أدق هوية اللاهوية للمجتمع.

إن مجتمع النص أمام قيم جديدة تغزوه، وتحاول أن تخلق وجودها؛ لتتحول إلى ظاهرة مجتمعية وعلى جميع الأحوال يمكن لهذه القيمة المدخلة أن تثير ردة فعلٍ عنيفة أو استحسانًا من الأغلبية الاجتماعية، وذلك حسب المضاعفات التي تخلقها هذه القيم"[48] لاقت هذه القيم الجديدة استحسانًا من مجتمع الشباب الساعي إلى حياة الثراء السريع في ظل مجتمع فقير مقهور، لا أمل قريب في إصلاحه؛ لذلك باتت القيم الجديدة القائمة على ثنائية الجهل / المال هي الفكرة المهمة لدى شباب مجتمع النص.

1–النفاق ومجاراة السلطة

بدا داخل مجتمع النص أنَّ أهم طرق النجاح، هي ثقافة النفاق والتملق ومجاراة السلطة الحاكمة؛ فهي التي توفر لصاحبها القدرة على صعود سلم المال والشهرة بسرعة كبيرة، فالشيخ فتحي المعداوي الشيخ الشهير صاحب النفوذ في حقيقته شاب أجاد النفاق والتملق وخدمة السلطة، فكافأته بأن منحته المنصب والشهرة، فتحوَّل من مجرد شاب فقير إلى شاب لامع يملك كل سبل الحياة، التي امتلكها عبر ثقافة الحقبة (الجهل / المال) "صعيدي ابن كلاف خرج من قريته، مُغطى بطين الفقر، وضعة المنزل والمنزلة، حيث في الصعيد الفقر ليس درجة اجتماعية، تضغط على صاحبها وتسحق حاجاته الدنيا، وتفرم طموحها إلى ما دون الكفاف بل الفقر كذلك ضاغطًا على كبرياء الفقير في الصعيد ساحبًا منه الكرامة، وخافضًا منزلته الإنسانية إلى حيث ملامسة العبودية".[49]

يُفقد الفقر الإنسان الكرامة، ويحيله إلى شخص مقهور، لابد أن يخلق وجوده موظفًا كل أساليب الحقبة الثقافية ووسائلها القوية التي بإمكانها أن تنزعه من محيطه المتدني إلى حياة رغيدة ماديًا؛ لذلك كان على الشيخ فتحي أن يتربص الفرص التي قد تتيح له ولوج عالم الحقبة الجديدة، من خلال بوابة رحيبة، لاحت الفرصة أمام الشاب فتحي المعداوي، وكان عليه أن ينتهزها، ويوظفها لمصلحته "ذات صباح في ردهات الجامعة انطلقت تجمعات صغيرة ومحدودة (...) فيما بدا أنه شروع في مظاهرة، لفتت نظر فتحي المستجد الكاره ظهرًا وباطنًا لهؤلاء الذين يتحدثون في السياسة أو ينشغلون بالأحداث العامة، يحقد عليهم بغلٍ صادق، يراهم من المترفين المرفهين".[50]

تبدو نفسية الشاب الفقير معبأة بالخوف والاضطراب، وعدم المقدرة على تحديد المفاهيم أو الرؤية الصائبة، تحت ألم الفقر وأوجاعه، لذلك بالغ في كراهيته لزملائه؛ لأنه يراهم أو يظنهم من وجهة نظره من المترفين الأثرياء، الذين لا يشعرون بما يشعر به، ويستعلون برغدهم عليهم؛ لذلك يبادر بانتهاز خدمتهم الجليلة له، عندما تظاهروا أمامه "انزرع في مواجهة المظاهرة المشرعة، وقام عاليا على حافة السلم وخطب بصوته الجَهْوَري الفخيم، وحماسه المنفعل، وأدائه المفتعل؛ فتركه منظمو المظاهرة غفلة أو اعتقادًا أنه منهم (...) أخذ ينصح زملاءه بأن يعودوا عن المظاهرة التي هي إفساد في الأرض (...) ومن ساعتها كان فتحي المعداوي بطل إدارة الجامعة وقياداتها الأمنية، وسلَّم كبرياءه المسلمة أصلا من زمن النشأة والتكوين عند باب عسكر الجامعة وباب حرس أمنها السياسي"[51] تحت ضغط العوز والاحتياج والقلق النفسي، انطلق الشاب فتحي محاولًا الانتقام من المترفين الأثرياء من زملائه، ومقدمًا نفسه لفحول المجتمع الجامعي؛ ليكون لهم عونًا، ويكونوا له سلم الترقي والخلاص من ذاته المهضومة، "كان يجلس متربعًا في مكانة تتميز عن كل الشيوخ عارضي

الدعم والتأييد محاولي التزلف والتملق، بل كان له جمهور يحبه فعلًا ويُصدق كلماته، ويمشي وراءه من هؤلاء الذين يحبون من الدين أن يكون في خدمة التطلع والطمع في الدنيا"[52] قصدت ذاته الارتقاء إلى مكانة مرموقة أو أفضل من مكانته المهينة له نفسيًا ووجدانيًا، عبر توظيف وسائل ثقافة الحقبة (الجهل / المال)، ومن خلالهما استطاع أن يكون ضمن صفوة المجتمع، ويصبح فحلًا دينيًّا، لكنَّ رغم نجاحه في تحقيق صبوته، كان عليه أن يواصل مسيرته من خلال ثقافة النفاق والتملق حتى يضمن لنفسه المحافظة على منصبه بين النخبة.

2-ثقافة المصادفة

عندما يشيع عدم احترام قيم العمل والجهد والعطاء، ويتوقف التفكير المُنْتِج، ويخضع العقل لسلطان النسق الثقافي الجديد، القائم على التراخي والنفاق والسعي خلف أبواب التملق، والجهد المنافق؛ تنهار القيم، وتتغير الثقافات، وتتراجع الأمم؛ لأنها سلَّمت نفسها لنسق ثقافي قائم على المصادفة وصناعة الجهل، يُشكِّل عقول الناس ووجدانهم، فتستبدل قيم النفاق والضجيج الفارغ بقيم العمل والعطاء والبناء الجاد، وكان مجتمع النص الروائي اعتمد هذا النسق الثقافي المؤسس على قيم المصادفة وصناعة الجهل، من خلال الضجيج والإلهاء والتضليل، والوقوف أمام قشور الأمور، هذا النسق الذي ضمن لأصحابه الثراء السريع والشهرة، والسلطة، فدفع العقل الجمعي لمجتمع النص إلى البحث عن فرصة من تلك الفرص القائمة على المصادفة والخضوع والاستسلام والتزلف.

يلقى الخطاب الروائي باللائمة في صناعة هذا النسق الثقافي الهادم للمجتمعات على نخبته السياسية والاقتصادية، فهي التي تتحمل مسئولية خلق هذا النسق الثقافي الذي خلق تصَوُّرات رسَّخت العجز والضعف في شباب مجتمع النص، التي بدورها وجدت في ثقافة المصادفة حاضنة مهمة قد تنتشله من حالة العوز والعجز، إن الوجدان الجمعي لمجتمع النص قد غذَّى عقل الأجيال القادمة بهذا النسق الثقافي من خلال رجال المال الذين سعوا في قولبة الوجدان المصري، وخلق تصَوُّرات ذهنية ثابتة ومستقرة تمكِّنهم من الهيمنة التي تسهم في إبقاء فحولتهم.

صارت المصادفة هي الطريق الأسلم لازدهار حياة الشباب، ومعها لا بد أن يقدِّم التنازلات على حساب إنسانيته؛ حتى يضمن الاستمرار في نجاحاته؛ لأنه يعي جيدًا أنه لم يحصل على ما حصل إلاَّ بالمصادفة، وأنه ربما لا يستحق هذا النجاح، لذلك يُقدِّم التنازلات ويبالغ في أساليب التزلف الإنسانية حتى يُرْضى النسق الثقافي "دعاه ذات مرة للمشاركة، ولكن الهواء بعد ساعتين يا مولانا (...) لكنَّه أدرك القصة التامة، لقد اعتذر الشيخ المستضاف، فبات مطلوبًا إنقاذ الحلقة بشيخ آخر فورًا، وربما تعثَّر المحرر في أرقام تليفوناته ثم أحس أن هذا الشيخ الواقع لن يشعر بإهانة طلبه قبيل البث بساعتين، فجأة ولإنقاذ موقف".[53]

حرَّكت البنية الاجتماعية والاقتصادية الشيخ الشاب حاتم لقبول هذا العرض، الذي لم يشعر بأية إهانة، بل كان بمثابة الفرصة الذهبية، التي لا بد أن يتشبث بها؛ كي يحقق نجاحاته، وفي مجتمع النص كل الفحول جاءوا عبر المصادفة، التي تنقلهم إلى عوالم أكثر ثراءً؛ لذلك استسلم لمجريات النسق الثقافي، وبدا على استعداد تام لمجاراة النسق الثقافي المهيمن "وجَّه السائق الذي أدرك أن الشيخ وجه جديد، ولا يملك مفردات الشغلانة، جلسته بجوار السائق، التي بدت ارتباكًا

أكثر منها تواضعًا، أسئلته المستفهمة عن مقدم البرنامج والمحطة دي تتشاف فين"[54] استسلم الشيخ الشاب للظروف المادية التي يعيشها، وانتهز فرصة المصادفة التي قادته للتلفزيون، حيث المال والشهرة، لو نجح في استثمارها جيدًا، لذلك بدأ في مرحلة الاستكشاف، التي ستعينه على الفهم، "انطلق السائق يستعرض خبراته ومعلوماته، شارحًا له دقائق التفاصيل، ومؤكدًا له أن البرنامج يدفع ألف جنيه للشيخ، لكنَّ الإنتاج سوف يستغلك؛ لأنها أول مرة وسوف يُخفِّض المبلغ، لكن إياك أن تقبل بأقل من خمسمائة؛ لأنهم سوف يتقاسمون الباقي بينهم"[55] تَعَلَّم الشيخ أول درس للاندماج في النسق الثقافي العام للمجتمع، مجتمع النص النخبوي "وعلى الرغم من كآبة الحكي وسوء الأداء كان حاتم سعيدًا أن يدخل هذا العالم"[56].

دفع النسق الثقافي الجديد "نسق المصادفة" الشيخ حاتم إلى الشك في كينونته، في علمه، وهل هو فعلا يستحق هذه المكانة العلمية التي تبوأها؟! أم هو مجرد تابع للنسق الثقافي الفحولي، "مالك يا حاتم؟! رد : خير يا بابا، الأب: مالك لا تصدق أنك شيخ، كأنه مأخوذ من الملاحظة، ليس لأنها مفاجئة وليس لأنها صائبة، بل لأنها جاءته ممّن كان ظن أنه اكتفى بالعزلة في سنواته الأخيرة فأجاب: وهو أنا شيخ يا بابا (...) وهل هذا يبقى شيخًا، هذا موظف بدرجة شيخ، عارف أنا إيه يا بابا أنا تاجر علم"[57] لخَّص حاتم الشناوي مبادئ النسق الثقافي الجديد "المصادفة"، صناعة الجهل في عبارة "أنا تاجر علم" فالتجارة في كل شيء وأي شيء هي أهم مبادئ النسق الثقافي المهيمن "المصادفة".

3–صناعة الجهل

"يُولد الفرد مزودًا باستعدادات غريزية تُمكِّنه من التأقلم في وسطه الجديد، وبمرور الوقت يبدأ المجتمع في قولبته تدريجيًّا؛ حيث تُفْرض عليه مجموعة من المفاهيم والقيم، والخبرات المشتركة لذلك المجتمع، وتتجلى عمليًا من أسلوب الحياة، أو من خلال المؤسسات، والقوانين، وقواعد السلوك لذلك المجتمع، وكل هذا بغرض التأسيس للسيطرة وإدامتها".[58]

انخرط الشيخ حاتم وغيره داخل مجتمع النص بأنساقه الثقافية القديمة والمستحدثة، التي تؤسس للهيمنة، من خلال صناعة الجهل وإدارته، فلا معلومة وحقيقة إلا ما يقدم لهم من خلال الفحول النخبويين، إن النسق المستحدث "صناعة الجهل" يسعى إلى ترويض المجتمع، وإحداث تغيير جذري فيه، يخدم مصالح الفحول النخبويين، فالممثل نادر المضطرب، القلق، عديم الهوية والثقافة، أصبح نجمًا شهيرًا "كان حاتم متأكدًا أنه ذات ليلة سوف يملّه نادر، ويقصيه عن حياته، فهذا الشاب القلق وجده لقية في تلك الأيام؛ حتى يتساند عليه، في مواجهة وحشته وفراغه وتفرغه، فهو شيخ يطرق حياته في توقيت زلق يكاد يجذبه الاكتئاب فيه ويقبض روحه، فأمسك في حاتم"[59] يعاني الإنسان المقهور نفسيًا، من نوبات اكتئاب وملل، ورغبة في التجديد أو العزلة، وهذه سمات الإنسان الخاضع لنسق صناعة الجهل، فهو يعاني من انفصام نفسي واضح، فذاته الحقيقية تشعر بأنه نال ما نال دون حق، وذاته الواعية ترغب في أن تعيش لحظات النجاح، وتؤمن بأنها حصدت ما حصدت بمجهود كبير، لكنها تعي أن مجهودها كان في التزلف والخضوع للنسق السائد، وهذا الاكتئاب أو الاضطراب نتيجة للصراع النفسي العميق داخله، لكنَّ هذا الصراع سرعان ما ينتهي مؤقتا؛ ليعود من

جديد، لكنه لا يقوى على اتخاذ قرار حاسم في الأمر؛ لأن بريق الفحولة وحضور المال قوي داخل النفس السوية، فما بالنا بنفس نادر المضطربة منذ الصغر "حيث عائلة نادر تفككت منذ إعداديته، حيث عادت أمه معه من السعودية مطلقة من والده (...) وتزوج من مصرية تصغره بعشرين سنة (...) فمات، (...) وأخبرته وهو مسافر للالتحاق بمعهد السينما أنها ستتزوج"[60]

جعل التفكك الأسري والنفسي نادرًا شخصًا متسقًا نفسيًا ووجدانيًا مع النسق الثقافي السائد، فهو يعاني من التهميش في حياته، ومن الاضطراب الذي حوَّله إلى دُمية خاوية "فرمى نفسه في القاهرة، يملك فتاتًا من كل شيء من التربية، ومن التعليم، ومن التماسك النفسي ومن الحلم ومن التدين ومن المال (...) لكنَّه بزغ حين عرف مبتغاه، ومع ظروف الانتقال السينمائي من جيل العجائز إلى جيل الشباب وجد نفسه ينتقل دون دراية منه ولا تَدَبُّر من مقاعد الصف الثالث والثاني إلى مصاف النجومية"[61] قادته المصادفة وظروف عصر التماوج إلى مصاف النجوم؛ ليمتلك المال والنجومية والسلطة، لكنَّه بقي أسير الجهل، فكان نموذجًا للخضوع للمنظومة المجتمعية الجديدة التي تسعى إلى التسيُّد.

ثقافة إلغاء الآخر

تعاني الأمم المتخلفة نوعًا ما عن الركب الحضاري من أزمة الانقسام الحاد، الذي يُوّلد نوعًا من العنف النفسي والوجداني، والفكري والبدني في كثير من الأحيان؛ لأنها لا تستطيع أن تستوعب مفهوم الاختلاف والتعددية الفكرية والثقافية والدينية والسياسية، ويبقى دومًا المخالف عدوّا أو مشروع عدوّ؛ لا بد من رصده والتصدي له بكل حزم، حتى لا يُفكِّر – من وجهة نظر هذه الشعوب – في تعكير صفو حالة السلم الاجتماعي والوحدة الوطنية، ومع هذه المعاناة الحضارية برزت في الأفق صورة الآخر / إلغاء الآخر لتكون معضلة أو إشكالية مجتمعية كبرى تُحيل "على الواقع الذي نبتت فيه: وعندما يكون المجتمع في قوته وتكون ثقافته في مداها لا يكون الآخر مشكلة، ولا جحيمًا، وعندما يفقد المجتمع قوته ومناعته، وتنهار ثقافته، ويتلمَّس دفاعًا عن الذات، يصبح الآخر المهدد عدوًا لا يرُى غيره[62] ولا بد من إلغائه أو تحييده أو الضغط عليه دائمًا؛ لإضعافه من خلال الضربات العنيفة المباغتة؛ حتى لا يُشكِّل خطرًا على المجتمع والذات الفردية، فهذا الآخر الذي يعاديه المجتمع، هو جزء أصيل من المجتمع، بل إن ذواتنا لا تتشكَّل إلا من خلال وجوده، "ثمة تلازم بين مفهوم (صورة الذات) ومفهوم (صورة الآخر)؛ فاستخدام أي منهما يستدعي – تلقائيًا– حضور الآخر، ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تَشكُّل كل منهما. فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس – بمعنى ما – صورة للذات"[63]

إن هذا التلازم والحضور بين الأنا والآخر هو الذي جعل كلا منهما عدوًا للآخر، عند اضمحلال الأمم، وانهيار الثقافات، وشريكين في الوقت ذاته في صناعة الحضارة، ودفع الأمة إلى التقدم في زمن القوة الحضارية، لكنَّ مجتمع النص الروائي يعيش حالة من انهيار الثقافة، وتراجع القوة الحضارية، فهو في أدنى مستوى له، وفي ظل هذا التراجع برزت صورة الفحل؛ لتكون هي بناء النسق الثقافي العام للمجتمع، والمتحكمة فيه، وهي الدافعة إلى تشكيل صراع الأنا والآخر،

ووصوله لذروته، ويرصد الخطاب الروائي صراع الأنا النخبوي والآخر النخبوي؛ بوصفه صدى للصراع المجتمعي العام، فالخطاب يرصد صراع النخبة، صراع الفحول: الفحل الأنا / الفحل الآخر؛ لأن الخطاب يقصد كشف حقيقة الصراع وجوهره، وأسبابه الحقيقية، التي نرى صورها بوضوح أو بكثرة في الفئات الدنيا مجتمعيًا، فالخطاب الروائي كشف حالة التدني الثقافي الشديد بين نخبه المختلفة، وتراجع قوتهم الحضارية أو الفكرية وتزعزع ثقتهم بأنفسهم؛ لأنهم على يقين أنهم ليسوا جديرين بما وصلوا إليه من فحولة ونجاحات؛ لذلك كان صراعهم عنيفًا وعشوائيًا، يبدو أحيانًا كثيرة بلا أسباب بلا أهداف، لذلك تنوَّعت صور إلغاء الآخر، ولم تتوقف عند حد معين.

1-الآخر الفكري

"إن تناول مسالة الأنا والآخر في الخطاب الأدبي كان لها حضور منقطع النظير، كما تناولها رجال الفكر والسياسة من قبل أن تتبلور في الأعمال الأدبية، ويعالجها كل أديب وفق رؤيته، ومنظوره"[64] وتعالج رواية (مولانا) الآخر بمنظورها الخاص؛ فهي لا تتوقف أمام الآخر النمطي التقليدي، الغربي في مواجهة الشرقي، أو المسلم في مواجهة المسيحي أو الأبيض في مواجهة الأسود فحسب، إنما ترصد تطور الفكري البشري ورفضه لكل ما يخالف منهجه الفكري؛ صار العقل بتنوعه واختلافه غريبًا ممقوتًا، فكل ما يخالف طريقة تفكيري صار آخرًا، وجب إلغاؤه أو إضعافه، قبل أن ينمو ويتضخم ويهدد وجودي، لذلك ظهر في مجتمع الفحول الآخر بوضوح، فكل من يهدد مصلحتي هو آخر وجب إقصاؤه فورًا حتى أضمن لنفسي الوجود والبقاء؛ ولأن حاتم الشناوي كان يعد لدى البعض آخرًا بنجاحاته ومنطقه العلمي؛ فلابد من التخلص منه أو إضعافه؛ حتى يضمن الفحل النخبوي لنفسه البقاء، فكانت التهم حاضرة وتصنيف حاتم ضمن الآخر، فالمحاولات جاهزة لترويضه، وتلقينه الدرس؛ كي لا يتجاوز حدوده، فتم تصنيف حاتم الشناوي ضمن الآخر الفكري أو العقلي، وبما إنه شيخ فلابد أن يلتزم النقل لا العقل كما هو السائد أو المتعارف عليه لدى شيوخ النخبة، ولو نحا بالدين نحو العقل فهو معتزلي، وهذه تهمة قد تعرقل مسيرته، لما لكلمة معتزلي من تاريخ سيء في المخيِّلة الجمعية العربية، " وكلام فضيلتك (...) ينتصر لكلام المعتزلة، وهي فرقة يكفرها كثير من علماء السلف"[65] فتهمة الاعتزال كفيلة بعرقلته وعرقلة مسيرة المحطة التلفزيونية التي تقدم برامجه؛ لأنها ستصير في نظر المجتمع محطة الآخر ،الذي يعارض صحيح الإسلام، ويُكفِّره علماء السلف، وهذا ما جعل الكعكي صاحب المحطة " يصرخ من سماعة أذنه (...) قول لحاتم (...) يمسح بكرامتها الأرض، دي حتودينا معاه في داهية"[66] كان صاحب رأس المال أو الفحل الرأسمالي على وعي بهذه التهمة الموجهة للشيخ حاتم، ووضعه في زمرة الآخر المعتزلي، وهذا كفيل بوضعه ورأسه ماله في زمرة الآخر، ومن ثم خسارة كل شيء، وربما التعرض للعنف المباشر، بسبب هذا الآخر " دي حتودينا معاه في داهية".

وعي حاتم الدرس، وعرف أنه قيد التتبع، وأن عليه أن يلتزم حدوده، ولا يتجاوزها؛ حتى لا يتحول لآخر؛ لذلك تهرَّب من الرد على التساؤل أو التعرض للمعتزلة اسمًا أو فكرًا "سيطلب من الكعكي حذف كلمات المعتزلة، وإنكار السنة من السؤال حين إعادة بث الحلقة، والتخلص من الشريط الذي يحمل هذه الكلمات، لهذا سوف يتجاهل ذكرها أو الرد عليها، حيث كونها محذوفة"[67].

صار الجهل يحرّك الجميع، وانقسم المجتمع إلى عدة "أواخر" كل منهم يهاجم الآخر، يتهم الآخر، يرفض الآخر، ويسعى في إلغائه؛ وانتهز الجميع هذا الجهل؛ ليوجه سهام الاتهام بالآخر إلى كل مخالف له أو منافس في منصب أو مال أو سلطان؛ ليزيحه من طريقه، لقد صار الآخر أي آخر مرفوضًا، ملغيًا، يجب أن يُغيَّب أو يُضعف؛ ويتوارى حتى يضمن لنفسه السلامة إن أراد ذلك، وبدا ذلك واضحًا في تعدُّد صور الآخر داخل مجتمع النص الروائي.

2-إلغاء الآخر الشيعي

كما ذكرت سابقًا أن المجتمعات التي تتراجع حضاريًا وثقافيًا تعاني من تفاقم مشكلة الآخر، وعندما يتعمق الجهل داخل تلك المجتمعات، وتعلو لغة المصالح؛ يكثر العنف، وتزداد المكايدات والتهديدات؛ لأن مجتمع الرواية يبني رؤيته للآخر من خلال مجتمع النخبة أو الفحول؛ فإن فكرة الآخر تحضر بقوة داخل حلبة صراعهم، فتتشابك المصالح وتتنافر؛ ولأن ثقافات المجتمعات المتراجعة حضاريًا تقتدي بفحولها، فإن مفهوم الآخر يتكاثر بصورة كبيرة، ويرتفع كلما تعارضت المصالح؛ ولعل أبرز صور التعامل بعنف مع الآخر، كانت في مجتمع النص مع أسرة الشيخ مختار الحسيني، ذلك الرجل المسالم الصوفيّ النخبويّ، المرتبط بمنظومة الفحول النخبوية، وبالفحل الأعلى مجتمعيًا؛ لكنَّ الحال تبدَّلت عندما تعارضت المصالح، وخشي الفحل الأعلى على نفسه من الشيخ مختار الحسيني بسبب معلومة ذكرها له، وندم بعدها على التصريح بها؛ قرر أن يكون شيخه المقرَّب آخر يسعى لإلغائه، ويضعه في مواجهة المجتمع ككل؛ لأن المجتمع سيعادي الشيخ مختار الحسيني، بوصفه عدوًا، عادي الفحل الأعلى أو منظومة الفحول.

إن الخطاب الروائي يتدرَّج في كشف عمليات التنكيل بالشيخ مختار / الآخر، وهذا التدرج هو خطة الفحل الأعلى في إلغاء الآخر، التي تسمح لنفسها بالتراجع في أية لحظة يريدها الفحل الأعلى "منذ عامين يا حاتم وبدأ مسلسل لم ينته (...) تخيَّل معاناة أسرة من الدوحة النبوية المباركة تشهد أشكال التحرش والتنكيل والملاحقة، وأشد الأعمال الإجرامية، حتى الاستعانة بأعمال البلطجة، وإشعال الحرائق بالمنازل، وإتلاف الممتلكات الخاصة، وافتعال حوادث السيارات"[68] كانت تلك هي المحاولات الأولى التي تبدأ بصناعة الآخر، رغبة من الصانع في التمهيد لإلغاء ذلك الشخص بيد المجتمع، بعد أن يدخل الرعب قلبه وعقله، والتأكيد أو التظاهر بأن محاولة الإلغاء هذه في مصلحة المجتمع وسعيًا لحمايته.

لم يكشف الخطاب الروائي الصراع مباشرة، إنما تدرَّج فيه؛ ليؤكِّد ذكاء الفحل الأعلى؛ ولأن الشيخ مختار الحسيني معروف، ولم يبد عليه أية علامات للتشيع أو معاداة للسنة، كان لزامًا أن يُمهِّد لهذا بتحطيمه نفسيًا، وإظهار تصوفه وادعائه أنه من بيت النبوة؛ حتى تكون تهمة التشيع مقبولة ومُصدَّقة، وكان من أهم عوامل خلق الآخر ودحره نفسيًا ودفعه للاستسلام لمصيره المحتوم "ونقعد في غرفة ضيقة باردة، معزولة لا يكلِّمنا أحد، ولا يقدِّم لنا أحد كوب ماء لمدة ساعتين (...) ويدخل علينا ضابط برتبة عميد، يتعامل معي بكل استفزاز، وعجرفة، ويقول لي قصاد زوجتي أنا أسمع إن بتوع الصوفية ملهمش في النسوان"[69]

كانت محاولات تحطيم الرجل نفسيًا ووجدانيًا، وإهانته أمام زوجته، كي يثبتوا عجزه أمام أهل بيته ومريديه، تتم باستمرار "أمر وزير الأوقاف بأن يُعيِّن خطيبًا للمسجد الكبير الذي به أضرحة آبائنا وأجدادنا من أولياء الله الصالحين؛ ليصعد المنبر كل جمعة، وكل يوم اثنين وخميس بعد صلاة المغرب، وهي المواعيد التي نستقبل فيها ضيوفنا (...) ليتناولنا بالسب والطعن في الصوفية وأهلها ووصفهم بالشرك"[70] هُزم الشيخ مختار الحسيني نفسيًا، وتمت تعريته أمام زوجته ومريديه، وتهيئة المناخ المناسب لتحويله إلى عدو مجتمعي / آخر شيعي، وعندما تم التأكد من النجاح في ذلك، تم الإعلان عن الشيخ مختار الحسيني بوصفه الآخر الشيعي الساعي إلى تقسيم المجتمع السني المترابط "وقد تلقى مكتب النائب العام بلاغات من محامين يتهمون الشيخ مختار الحسيني بسب الصحابة، والسيدة عائشة ﵂ (...) وكشفت التحقيقات أنها "حسينيات" أنشأها الشيخ الحسيني؛ لجذب الشباب للتشيع والسفر إلى إيران، والإقامة في مدينة قم، وتلقي الفقه الشيعي على يد آيات الله في إيران"[71] كانت هذه الأخبار كفيلة بتأليب المجتمع / مجتمع النص بأكمله تجاه الشيخ، والسعي إلى الفتك به، ومع توالي أخبار الشيخ تشكَّل الآخر الشيعي وارتسمت معالمه، وبدا خطره الزائف على المجتمع، وشُحن المجتمع ضده، ومن ثم بدأ دور الفحل الأعلى بصفته الحامي لمجتمع: دينه، وحدته، وثقافته من الأخطار المحدقة به؛ لذلك علت المباركات بتغيب الرجل / الآخر الشيعي وحماية المجتمع من أخطاره وسمومه.

3-إلغاء الآخر المسلم / المسيحي

تُجسِّد إشكالية العلاقة مع الآخر في مجتمع مأزوم وجودًا جليًا، أصبح مدعاة للفهم والتحليل والاستقصاء؛ للوقوف أمام هذه الإشكالية وفهمها والسعي الحثيث في حلها؛ لأنها تهدد أمن المجتمع وسلامته، خاصة وأنها لا تتراجع عن حدتها، بل تزداد وتنشط من وقت لآخر، ويُخشى أن تندلع في لحظة يصعب السيطرة عليها.

لقد نظر خطاب رواية (مولانا) إلى تلك الإشكالية بوصفها نتاجًا طبيعيًا لتراجع حضاري وثقافي وتعليمي، فالجهل واستفحال المصالح أدَّى إلى هذه الإشكالية؛ لذلك لم يعمد النص الروائي إلى وصف إشكالية الآخر في الطبقات الدنيا، إنما عرض لها من خلال طبقة النخبة والفحول، الذين يهيمنون بسلطتهم على مجتمع النص الروائي، ويوظفون كل شيء لمصلحتهم؛ لذلك جاء التمرد، والعنف تجاه الآخر من بينهم "صحيح أن صورة الآخر تُشيَّد دائمًا على ميدان التاريخ، ولكنَّها انطلاقًا من أنماط أصيلة عابرة للتاريخ، هي التي تؤسس مخيالنا الإنساني"[72] وهذا يعني أن مشكلة الآخر في مجتمعنا ربما تعود إلى زمن قدوم الحملة الفرنسية، التي وظَّفت الآخر لخدمة مصالحها، لكنَّ عوامل التاريخ ليست وحدها التي تخلق وتؤجج هذه الإشكالية، فهناك الجهل والتراجع الحضاري، ونخب المصالح وفحولها الذين يعتلون أية موجة مجتمعية؛ بهدف إثبات سطوتهم، فالحاج عبد البصير أحد فحول مجتمع النص، الساعي لترقي فحولته عبر الترشح لمجلس النواب، يسعى لتوظيف هوس إلغاء الآخر لمصلحته "عرف أنه فرح يكفله الحاج عبد البصير، وسمع فخورين يرددون في لهج الشكر، أن نادية الفتاة القبطية التي تنتمي إلى قرية قريبة، وتعمل ممرضة في عيادة الدكتور سمعان في المركز قد أسلمت، وهجرت أهلها؛ فحماها الحاج عبد البصير من مطاردتهم لها، وآواها في منزله العامر وقرر شراء شقة لها ويزوجها لأي شاب مسلم متكفلًا بكل لوازم الزواج"[73]

ينتهز الفحل النخبوي الحاج عبد البصير الصراع الطائفي، ويلقي بدلوه في صناعة الآخر؛ موظفًا لها في سعيه لعضوية مجلس النواب "الحاج عبد البصير الذي صارحه بنيته للترشح للانتخابات القادمة"[74] يبدو أنَّ المصلحة الخاصة هي محرِّك الحاج عبد البصير، وهي الدافع في تبني قضية الفتاة القبطية، وتأجيج الصراع الطائفي، بهدف إرضاء الناخبين، والمتشددين الذين سيقفون معه في الانتخابات، بوصفه الفحل حامي حمي المجتمع الإسلامي، لم يلتفت للواقع المشحون بالحقد والكراهية تجاه الآخر، إن إشكالية إلغاء الآخر في حقيقتها كما يبرزها الخطاب الروائي تعود إلى شعور الطرفين المسلم والمسيحي "بأنهم أقل قدرة وإمكانات وقوة في العالم، فهو نوع من التعويض، وفي مصر بالذات هو نوع من الانتصار في واقع كله هزائم"[75] فالمعاناة من مشاكل الجهل والفقر هي أهم سبب في خلق إشكالية الآخر، لذلك فكل هذا "لا تراه في أوروبا حيث يدخل مسيحيون الإسلام، ولا تهتز الدنيا ولا يتأثر شغلهم ولا وظيفتهم، ولا وضعهم الاجتماعي (...) كما يتنصر مسلمون من دون صخب ولا أفراح ولا أعراس مسيحية، لماذا؟ لأنهم مجتمع غير مهزوم، ولا يتخذ الدين والعقيدة بابًا للتعويض عن وضع اقتصادي مهبب أو طرق مخنوقة، أو فراغ سياسي أو قلة قيمة وانعدام حيلة".[76]

لخَّص الخطاب الروائي أسباب إشكالية إلغاء الآخر في مجتمع النص، ونشاطها وتفاقمها من وقت لآخر، وهذا ما خلق نموذج "حسن" ابن مجتمع الفحول النخبوي الذي اندمج رغم ثرائه، وسلطته، وثقافته، وتعليمه في محيط العنف الطائفي، وراح يستعرض حالات القهر المفروضة على المسيحيين في مصر لا بنية منحهم حقوقهم؛ إنما بنية اتخاذهم وقودًا انتقاميًا من أسرته، وزوج أخته، الذين بالغوا في فسادهم وإفسادهم للمجتمع، فيكشف حسن للشيخ حاتم أسباب تنصُّره، دون أن يدري أنه يقول الحقيقة "تحليلك لي طبعا أنني متمرد على عائلتي؛ لأنهم مجموعة من الفاسدين والمستبدين، وكي أثبت تمردي؛ ثرت على ديني نفسه ودخلت المسيحية"[77] كانت هذه هي الأسباب الحقيقة لتفاقم إشكالية الآخر في مجتمع النص، التي ساقها حسن في حديثه مع الشيخ حاتم "الفساد، والإفساد، والاستبداد" "أعتقد فعلاً أنَّ موقفك من أهلك أحد الأسباب الرئيسية إلى جانب الجهل والمراهقة طبعا في تحولك المزعوم إلى المسيحية"[78] اتضحت أسباب السعي في إلغاء الآخر، واكتملت الأسباب بما ساقه الشيخ حاتم ردًا على حسن، فالجهل، والفقر، والمراهقات السياسية والاقتصادية هي التي أثمرت الصراع المجتمعي "الأنا، والآخر "، وحالات التفكك الأسري الشديدة، والاستعلاء الأبوي من الأب والأم، أو الزوجة والزوج على أنفسهم أو على أبنائهم؛ مما خلق أجواء التمرد والانتقام بالثورة على كل ما هو مقدس.

استشرت حالة النفاق والرياء في المجتمع، وصار النفاق والرياء ستارًا يحاول بعضهم ستر عيوب المجتمع ومشاكله عبره، رغم أنه يخفي الكراهية والحقد، والشحن المبالغ فيه، "ستعمل فيها مؤمنًا بالسيد المسيح وتتكلم عن الكلام الفارغ بتاع إن المسلم مطالب بالإيمان بالمسيح وكل الأنبياء، (...) وهذا الكلام المصاب بانفصام في الشخصية، تقول عليهم حبايبكم بينما تتعاملون معهم على أنهم أهل ذمة، درجة تانية، تقولون إن المسيح كلمة الله، بينما تقولون عن المسيحيين كفرة وسيدخلون النار"[79] كشف الخطاب عن حالة الفصام النفسي المجتمعي، والمسكوت عنه مجتمعيًا، إن حالات الكشف هذه تهدف إلى محاولة إصلاح المجتمع، وإقامة علاقة اجتماعية سليمة، تسهم في تقدم الوطن.

4–القسيس المُخلِّص

(استدعاء التاريخ والانتقام من الآخر)

تُعبِّر رواية (مولانا) عن رؤية سلبية قائمة على الصراع الجدلي، والعدوان الوجودي، بين الذات المسيحية والآخر المسلم، في تعبيرها عن هزيمة الذات المسيحية أمام الآخر المسلم، الذي بدا وكأنه يتربص بها؛ لذلك تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش السلمي إلى مرحلة الصراع الجدلي، الذي يكشف عن عجزها، فتضطر إلى استدعاء الماضي حيث التاريخ الحافل بتعويض الذات المسيحية عن هزائمها، فعبر قصة مُحَمَّد منصور أو ميخائيل الذي تنصَّر وترك الإسلام "في بلدته سوهاج 1894م، وتم تعميده باسم الأب والابن والروح القدس"[80] تتمسك الذات المسيحية بالتاريخ؛ لتقاوم عجز الحاضر، فمحمد منصور : ميخائيل "صار أيقونة استعادة الذات، بتحديه لمجتمعه وإشهار مسيحيَّته" أكمل القس؛ أخذت والدته في العويل والصياح والندب والبكاء، وكذا إخوته، وخالاته، وكأنه قد مات، وامتلأ البيت بالنساء والرجال يعزون"[81]

يتباهى القِسّ بما حدث؛ لذلك فهو يركز على الوصف الفسيفسائي الدقيق لرد الفعل تجاه المتنصِّر مُحَمَّد منصور؛ ليثبت ذاته المقهورة أو المهزومة، فالتاريخ وحده القادر على بث الأمل في نفس القس، فتبدو السعادة على كلماته وهو يعيد قص الماضي من جديد؛ لذلك يكرر وصف علامات الحزن والألم التي تبدو على أسرة المتنصر مُحَمَّد منصور، "أما والده فلما وصل إلى القاهرة وبحث عنه، وجده في دار البطركخانة القبطية الكاثوليكية؛ فأخبره بما شاع في سوهاج عنه؛ فأجابه بأن كل ما سمعه حق ولا شك، فنزل هذا القول على والده نزول الصاعقة، وانسحق قلبه، وكان أن يجن غضبًا"[82]

يتلذذ القس بالحكي المقدَّس، الذي يُثبت قوة دينه، ويوظف الحكي لبث الطمأنينة في نفسه، ورغبة منه في تأكيد إلغاء الآخر المسلم، أصرَّ القس على عرض المواجهة بين الأب وابنه المتنصِّر؛ ليؤكد أن المتنصِّر فخور بدينه الجديد، وأنه يتحدى الجميع، ولا يبالي، وإمعانًا في تأكيد إلغاء الآخر، وصف القس أو النص الروائي أو الحكاية الشعبية المسيحية، مُحَمَّد منصور بأنه أزهري، يعلم الإسلام جيدًا، ورغم ذلك فضَّل عليه المسيحية؛ لم يكتف بذلك بل بادر إلى زيارة الفاتيكان في جو من التحدي والاحتفالية، ويكمل القس تموجات ذاته المسيحية التاريخية قائلا: "وفي أغسطس سنة 1895م سافر بصحبة وفد كاثوليكي إلى روما؛ فقابل البابا "ليون الثالث عشر" بزيه الإسلامي مقابلة ذات شأن، حيث قرَّبه إليه وباركه وطلب منه أن يثبته في الإيمان المسيحي"[83]

سعت الذات المسيحية لإلغاء الآخر المسلم، عبر سفر مُحَمَّد منصور للفاتيكان بزيه الإسلامي؛ إننا أمام صراع جدلي طائفي، لا يعرف التسامح، ولا التعايش السلمي؛ لذلك كان القس وهو يحكي مركزًا على تعليم مُحَمَّد منصور الديني وزيه الإسلامي، الذي زار به الفاتيكان، إننا أمام مكايدة تكشف عن وضع مجتمع النص المأزوم بالجهل، والحقد، والأنانية، وهذا ما أفصح عنه الخطاب الروائي عبر صوت الشيخ حاتم؛ لفضح اللغة الدعائية في ذلك الصراع الصفري "المسألة تحولت إلى شو كبير، خصوصًا أن مُحَمَّد منصور فهم أن سفره إلى الفاتيكان بالقفطان والعمة والكاكولا، ولبس الأزهر

سوف يجعل منه بطلًا مغوارًا، لانتقاله من عالم دين إلى دين آخر؛ وكأنها ضربة موجعة في صراع ديني"[84] عبَّر الشيخ حاتم عن حقيقة الأمر، الذي لا يعدو كونه جهلا واحتفالية مكايدة، لا تعبر عن إيمان حقيقي، بقدر ما تعبر عن هزة نفسية للمتنصر وللقس ذاته؛ لذلك بادر القس بالرد حتى يثبت انتصاره "كلامك جارح طبعا يا مولانا، لكن مفهوم في ظل جرحك الشخصي مما فعله الرجل"[85] العداء والعدوانية واضحتان في نبرة الخطاب بين القس والشيخ، وهما بطبيعة الحال يعكسان وضع المجتمع المشحون بين الذات المسيحية والآخر المسلم. إن "اعتبار الغير أو الآخر مخالفًا أو مقابلًا للأنا أو الذات، وبالتالي فالغير يحاول تقريب الذات وإقصائها، وتهميشها مع ممارسة العدوان والحقد ضدها فيصبح الغير هنا جحيمًا لا يطاق، لذا تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي، وهذه النظرة العدوانية غالبًا ما تفرز على حسب هيجل في حالة انتصار أحدهما إلى ظهور ما يسمى بجدلية السيد والعبد"[86] تلك المرحلة التي سعت الرواية إلى إجهاضها وعدم الوصول إليها من خلال كشف الأمراض الاجتماعية المستوطنة في مجتمع النص الذي يعاني من التجهيل والجهل والاستعلاء والفحولي وسيطرة المصالح الضيقة التي تهدم كل شيء يتعارض معها.

تَمَرُّد الهامش

الهامش أو التابع أو المرؤوس Subaltern / Subordinate ليس هو المقموع فقط، رغم أنه قد يكون بالفعل هذا هو حاله، لكنَّه يعني بالأحرى فقدان الاستقلال، والخضوع لنفوذ جماعة اجتماعية أخرى أو لسيطرتها، وعدم امتلاك المرء موقفه من السيطرة على مقدراته"[87] ففكرة فقدان الاستقلال والتبعية فكرة راسخة في مجتمع النص الروائي، تكاد تكون الرواية قد قامت عليها: على انعدام الاستقلال الفردي للإنسان، الذي تحول تحت ضغوط الفحل إلى مجرد تابع، أو فاقد للاستقلال، يتحرك وفق مشيئة غيره لا وفق مشيئته، فتعددت صور التبعية والتمرد داخل مجتمع النص، وربما لأيديولوجيا المؤلف دورٌ في أن يحمل النص بين طياته صور الثورة على كل هيمنة مبالغ فيها، فبدت الرواية صورة من صور الحقبة التاريخية "إن التركيب المعقد للعلاقات بين السيطرة السياسية والقهر لا تظهر أهميته مكتملة إلا إن كانت دراسة السياسة متجذرة في التاريخ"[88]

يحلينا النص الروائي إلى التاريخ كي نفهم حالة القهر وانعدام الاستقلال المتجذرة داخل مجتمع النص وبين أفراده، فالتاريخ قد يخبرنا كيف كان المستعمر مؤسسًا لتلك الحالة المتوارثة داخل المجتمع، فلقد "وقفت الرغبة الجديدة في عملية الهيمنة عاملًا مهما في صناعة التابع، فالمستعمر الغربي كان يتعامل مع طبقة المستعمَرين (العمال – الفلاحين) كمن يتعامل مع طبقة الجنود في المعسكرات أو الطلاب في المدارس بهدف صناعة التابع الذي لا يؤمن بذاته إلا من خلال الآخر / الأب / المستعمِر الذي يمتلك كل أدوات الرعاية أو الحماية أو المعاونة عند الحاجة[89]كي يبقى المواطن / الإنسان منعدم الاستقلال، رهن الاستعباد المعنوي، إن الرغبة الملحة للتمرد حتى إن بدت مختفية أو متوارية، فهي قيد النشاط الداخلي، تنتظر لحظة الإعلان عن نفسها.

لقد ورّث المستعمر تلك الحالة للشعوب المستعمرة حكامًا ومحكومين، وتغلغلت حتى أصبحت نموذجًا، اجتماعيًا صارمًا، يطبق وفق تراتبية الأسرة، / الفحل / الدولة، لقد انطلق بركان التمرد يعلن عن ذاته في نفس الهامش/ حسن الابن الارستقراطي لأحد كبار أثرياء مجتمع النص، والمقرب من الأسرة الحاكمة، لكنَّ التساؤل الرئيس هنا، هل كانت شخصية مثل حسن بما يملك من مال ونفوذ، وسلطة يعاني من التهميش والتبعية؟! ظاهريًا لا، لكنّ لمن يقرأ الصورة الأسرية يعي أن الشاب حسن قد مورس ضده القهر المعنوي والنفسي، وفرْض الرأي؛ حتى إن والده اختار مستقبله: نوع دراسته، ومكان دراسته، وهذا ما قابله الشاب "بهروب نفسي وجفاف وجداني أثَّر فيه"[90] ودفعه إلى التمرد الشديد تجاه أسرته؛ شكَّل هذا التمرد العنيف خطرًا داهمًا للمستقبل الاقتصادي والسياسي للأسرة، تلك الأسرة التي كانت تُهيِّأ نفسها لتتبوأ مكانة سامية، فجاء التمرّد المقصود الواعي من قبل ابنهم حسن ليقضي على طموحاتهم.

كان عنفه مستمدًا من قسوة التهميش ووحشة التبعية، وانعدام الاستقلال الإنساني، فقصد عن وعي بما يفعل إرباك حساباتهم، والانتقام من ظلمهم "المشكلة أن حسن من فترة بدأت تظهر له أفكار غريبة (...) تنهَّد حاتم فأخيرا عرف (...) آه تطرَّف دينيًّا أشاحت بوجهها عنه والدموع تطفر من عيونها، ووصل زوجها إلى أعلى درجات التوتر التهابًا، رفعت رأسها ونظرت بعيون كسيرة إلى الشيخ حاتم وقالت"لا تنصَّر"[91] كان التمرد عنيفًا فظهر على ملامح أخته وزوجها "أشاحت، الدموع، تطفر" ولحال زوجها "أعلى درجات التوتر التهابًا"، عبَّر التمرد عن وجع الشاب وعن حرمانه من حياته وذاته؛ فقرر الهامش أن ينتقم لذاته ولأبناء جيله من ممارسات أسرته (أبيه / زوج أخته) فاختار أقسى تمرد ممكن، وهو التنصُّر، طعن صميم وجدان الأسرة الحياتي "الخاص والعام " فمهما كانت الأسرة متدينة أو غير متدينة؛ فحدث مثل هذا كفيل بأن يدمرها، ويقضي على طموحها السياسي والاقتصادي.

"فجأة لقينا حسن بيحط تمثال العدراء في أوضته. ماما لاحظت ده بعد كثير من الوقت، لكن لم يشغل بالها"[92] كان الإهمال للشاب هو الحدث المهيمن في علاقته بأسرته "لاحظت بعد كثير من الوقت" وكأن الشاب غير موجود أو قد أُسقط من حساباتهم الإنسانية، فالمال فحسب هَمّ الأسرة، والمال في يد الشاب بوفرة كثيرة، فلماذا تتابعه الأسرة أو تهتم به الأم، "ولكن لم تشغل بالها"، حاول الهامش أن يلفت نظرهم له، علَّه ينال بعض اهتمامهم، وأن يتعاملوا معه بوصفه إنسانًا، ابنًا، لكنه لم ينل ما أراد؛ فكان التمرد.

كان رد فعل الأب استعلائيًا، فعندما علم بما فعل الابن والأموال التي تبرع بها لجمعيات قبطية "اطلع على مئة وستين ألفا انسحبت شيكات من حساب حسن، كلها لصالح جمعية قبطية، وأخرى جمعية مسيحية مقرها قبرص، ثم 14 أو 16 ألف مسحوبة من الفيزا لشراء كتب من مكتبة كنيستين في مصر"[93] لم يحاول الأب العودة إلى البيت، إنما استعلى على الابن وقرر صحبته إلى الجونة دون أخذ رأيه، لذلك لم يمهله حسن "أحسَّ حسن إن فيه حاجة، وبمجرد ما سلَّم على والده وقعد جنبه في الطائرة، قال له : بابا أنا باكره الإسلام، وعايز أتنصر وأبقي مسيحي"[94] بادر حسن بالهجوم عبر الصدمة والتمرد، علّه يجد حوارًا أبويًا حانيًا يردُّه إلى دفء الأبوية مرة أخرى، لكنَّ الأب هرب من المواجهة، وعاد إلى البيت، وعندما أراد حل المشكلة كلَّف غيره لحلها؛ لأنه لا يملك الوقت، وكل شيء يحلُّ بالمال، بالتجارة، فهو

يدفع لوكلاء؛ كي يحلوا أزمة الشاب، ولم يفهم أن التهميش، وانعدام الاستقلالية وفقدان الحنان، والرعاية هو السبب في خلق بركان التمرد داخل حسن، الذي استمر في تمرده معلنًا التنصُّر، وعندما لم يجد ردًا إيجابيًا من أسرته قرر استمرار تمرده وتطويره، ليكون تمردًا دمويًا، فشارك في تفجير الكنيسة بنفسه.

"كان أذكى من الجميع، يبدو أنهم أخفوا عليك أن الأمن التقط دخوله على مواقع تنظيم القاعدة، والمواقع المتطرفة على الانترنت، وأنه حاول الاتصال بهم أكثر من مرة، ويبدو فعلًا أنه اتصل بأحدهم، الأمن حذّر عائلته، وأنت تعرف طبيعة العائلة، واجهوه فأنكر، ثم قال إنه مجرد فضول، وظنوا هم كذلك أنها كانت نزوة أو مجرد مغامرة"[95] تمرد حسن / الهامش، حاول أن يدفع الأسرة للاستفاقة من غيبوبة الجفاف، والرأسمالية الشرسة، لكنَّهم لم يفهموا رسائله، "بينما حسن يتناقل من الرصيف المقابل ثم يضغط على جهاز التحكم في سيارته؛ فينطلق جهاز الإنذار منها زاعقًا، ثم تنفجر السيارة".[96]

تمرد وأعلن التنصُّر؛ فتجاهلوه ودفعوا به إلى الشيوخ، ولم يحاولوا الحوار معه، واحتواءه، ومنحه الحرية والحب والدفء؛ فقصد جماعات التطرف، عرفوا ذلك واعترف لهم لكنَّهم تجاهلوه، وتركوه؛ حتى انفجر في وجههم وصار دمًا ساخنًا يؤرق الجميع، ولم يعوا الدرس.

أكَّد الخطاب الروائي أن الحرمان العاطفي والإنساني، وفقدان الإنسان للحرية، وانعدام استقلاليته، ووقوعه تحت قيد القهر والتجبر؛ يدفعه إلى ممارسة العنف.

2 – لم يكن حسن الهامش الوحيد الذي قرر التمرد على قهره، وفقدان استقلاليته، فالشيخ حاتم الشناوي، سعى إلى التمرد والبحث عن ذاته بعد سنوات من القهر وانعدام الاستقلالية، لكنَّه كان حائرًا كيف يتمرد خاصة وأنه لم يكن يمتلك قوة حسن وجرأته، "هل يقدر هو على دور الشيخ المعارض، حيث لا يجد شيخًا يعارض هذا النظام إلا شيوخ التطرف المكفِّرين للحاكم والمحكوم، هل يملك أن يكون هذا الشيخ الذي يقول كلمة حق أمام سلطان جائر"[97]

لا يقوى الشيخ حاتم على التمرد، ولا يستطيع أن يكون من يقول كلمة الحق أمام الحاكم الظالم، لكنَّه اكتفى بتمرد رمزي، بحث فيه عن ذاته الإنسانية الحقَّة، يُعبِّر عما بداخله من رغبة في الانفجار، فلقد رفض أن يهاجم الشيخ مختار الحسيني، وحافظ على صداقته واحترامه لنفسه؛ فبدا لهم متمردًا وقرروا معاقبته؛ "لأنهم كانوا يظنون أنك منهم، ومعهم، تحت السيطرة، لما بان أن ظهرك ليس فيه فتحة الزمبلك دُهلوا وقرروا معاقبتك"[98] كل تمرد مرفوض، حتى لو كان تمردًا معنويًا رمزيًا، إنهم يريدون دمية تتحرك بإشارتهم؛ لذلك قرروا معاقبة حاتم الشناوي، وقتله معنويًا؛ لكنّه لم يرضخ وأراد أن يُعلي من كرامته، ويوجه لهم الإهانة بطريقة تضمن له كرامته، وتجبنه العقاب، أو المهانة والإذلال، "رفع جلبابه، وأمسك طرفه بأسنانه، ثم فك سرواله وأخرج عضوه، وأطلق بوله على الجدران، ولفَّ فأطلقه على الجدران والستائر، والسجاد البالي، وعلى ظهر الباب، كان بوله ينافس غضبه ويسابق حريته (...) وهو يتبول عليهم جميعًا"[99]

تمرَّد الهامش تمرُّدًا معنويًا رمزيًا، قصد به استعادة ذاته والاستقواء فوق الضعف، قصد استرداد وجوده بتمرده، حيث كانوا يرونه، ويرصدون ما يفعل، "استعاد إذن شيئًا من هيبته، فهل يا ترى اتعظوا، من بولته في وجوههم جميعًا؟!"[100]،

عندما حضر الشيخ حاتم الاستجواب، كان قويًا متماسكًا؛ لأنه من وجهة نظره انتقم لذاته الجريحة، وكشف لهم عن تمرده ورفضه لأساليبهم، ونجح في ذلك، "نحن نعرف أنك لا تحتاج إلا للحوض فقط، كان يومئ ولا شك إلى طرطشة البول، مما جعل حاتم فخورًا بنفسه، وبفعلته"[(101)].

عاش المجتمع كله في حالة التهميش والتبعية وفقدان الاستقلال؛ فتحوَّل إلى إنسان محطم فاقد للحس الذاتي، وظل هكذا يحيا برضى مزيف، وداخله رفض شديد لتلك الممارسات؛ حتى تمرَّد وأعلن عن نفسه بطريقته الخاصة، محاولًا كشف خطأ التهميش وعواقبه، التي تقضي على ذات الإنسان وشخصيته؛ ليبقى كائنًا ضعيفًا، لا يفيد وطنه؛ لأنه يعجز عن المجابهة والمواجهة للتحديات التي قد تعوق تقدم وطنه، وقد يستثمر ضعفه وهشاشته ليكون معول هدم لوطنه ومجتمعه كما في حالة حسن؛ الذي سعى إلى إيذاء المجتمع بأكمله انتقامًا لنفسه.

الخاتمة

تعد هذه الدراسة قراءة سوسيو ثقافية لرواية (مولانا) لإبراهيم عيسى، رصدت كل التغيرات الاجتماعية والثقافية داخل مجتمع النص الروائي، ووصفت كل الآثار المترتبة على تلك التحولات الكبرى في المجتمع الروائي.

كشفت الدراسة عن البعد التنويري في خطاب الرواية بوصفها خطاب أفكار تنويرية تهدف إلى علاج المشكلات المتراكمة داخل المجتمع، وكشف أثمال الأنساق الثقافية التراثية: الفحولة، وأحادية الفكر، والصراع مع الآخر.

أوضحت الدراسة كذلك دور التاريخ الاستعماري في ترسيخ العديد من الأنساق الثقافيَّة التي تعيق تقدم الأمم والمجتمعات، ومنها الأبويَّة المتعالية والاستبداد الأسري.

أبرزت الدراسة الآثار السلبية المترتبة على ترسُّخ مفهوم الفحولة المجتمعيَّة والاستبداد الأسرى، وأهمية الإبداع الأدبي في خلق أنساق ثقافية جديدة تقاوم الأفكار الرجعيَّة.

أكدت الدراسة دور النص الأدبي في مناقشة قضايا المجتمع كافَّة، وكشف العيوب والأخطاء، والسعي في إصلاحها بوصفها نصًا أدبيًا تنويريًا.

قائمة المصادر والمراجع:

1-الكتب:

- إبراهيم الحيدري: النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار الساقي، لبنان، ط1 2012م.
- إبراهيم عيسى: رواية مولانا، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، ط 2، 2012م.
- أرثر أيزابرجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المركز القومي للترجمة، ط1، 2003.
- آن شو ستاك ساسون، مداخل إلى جرامشي، السيطرو السايسة، الثورة، الدولة، تر: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م

- برهان غليون، مجتمع النخبة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط 1، 1986م.
- جان نيدرفين بيترس، العولمة والثقافة المزيج الكوني، تر: خالد كسراوي، مر: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، ط 1، 2015.
- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005.
- علي الوردي، وعّاظ السلاطين، دار كوفان- لندن، ط2، 1995م.
- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: د. بسام بركة، د. أحمد شعبو، دار الفكر العربي، بيروت ط 2، 2002م.
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترج د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، دمشق، 2000م.
- مجموعة مؤلفين، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999م.
- مُحَّد الجويلي، الزعيم السياسي في المخيال الإسلاميين المقدس والمدنس، المؤسسة الوطنية للبحث العلمي، تونس، 1992م.

2- المجلات:

- بو علام معطر، نسق الهيمنة الثقافية وآلياتها من منظور بياربورديو، مجلة دراسات، عدد، 4، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الرواية العربية، مجلة الأزمنة الحديثة، المغرب، ع 3، 2011م.
- زوليخة باجي، تجليات الأنا والأخر في الخطاب الروائي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، الجزائر، ع 12، 2017م.
- ليندة مسالي: تمثيلات الفحولة في الرواية النسوية الجزائرية، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، ع25، 2017م.
- مُحَّد بريري : البعد الإشاري والخبري: مدخل لقراءة خطاب أبي حيان: فصول، مج 14، ع 4، 1996م.

3-المراجع الأجنبية:

- Patrick Williams & Laura Chrisman: edited and introduced: Colonial discourse and Postcolonial theory A Reader":. Columbia University Press: New York: 68:73

الإحالات:

[1]) انظر، د. مُحَّد بريري : البعد الإشاري والخبري: مدخل لقراءة خطاب أبي حيان: فصول، مج 14، ع 4، 1996م :ص 70

[2]) انظر عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005 ص 130

[3]) إبراهيم عيسى: رواية مولانا، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، ط 2، 2012م: ص، 139

[4]) المصدر السابق : ص 139

[5]) السابق: ص 140 : 141

[6]) السابق: ص 141

[7]) السابق: ص 141

[8]) السابق: ص 162

[9]) السابق: ص 147

[10]) السابق: ص 147

[11]) السابق: ص 148

[12]) السابق: ص 354

[13]) السابق: ص 354

[14]) السابق: ص 355

[15]) السابق: ص 355

[16]) أرثر أيزابرجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المركز القومي للترجمة، ط1، 2003، ص: 86: 87

[17]) إبراهيم الحيدري: النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار الساقي، لبنان، ط1 2012م، ص : 438

[18]) ليندة مسالي: تمثيلات الفحولة في الرواية النسوية الجزائرية، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، ع25، 2017م، ص: 156

[19]) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترج د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، دمشق، 2000م : ص 92

[20]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: 45: 46

[21]) المصدر السابق: ص 46

[22]) السابق: ص 47

[23]) علي الوردي، وعّاظ السلاطين، دار كوفان– لندن، ط2، 1995م: ص: 11

[24]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص: 58

[25]) السابق: ص 50

[26]) السابق: ص 59

[27]) السابق: ص 39

[28]) السابق: ص 81

[29]) السابق: ص 61

[30]) السابق: ص 61

[31]) السابق: ص 65

[32]) السابق: ص 66

[33]) السابق: ص 62 : 63

[34]) السابق: ص 63

[35]) د. على الوردي، وعَّاظ السلاطين: ص 11

[36]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 67

[37]) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: د. بسام بركة، د. أحمد شعبو، دار الفكر العربي، بيروت ط 2، 2002م: ص 95 : 96

[38]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 97

[39]) المصدر السابق: ص97

[40]) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: ص 96

[41]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 100

[42]) انظر: مُحَمَّد الجويلي، الزعيم السياسي في المخيال الإسلاميين المقدس والمدنس، المؤسسة الوطنية للبحث العلمي، تونس، 1992: ص 58

[43]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 130

[44]) انظر: المصدر السابق: ص403

[45]) السابق: ص394

[46]) السابق: ص 396

[47]) انظر: جان نيدرفين بيترس، العولمة والثقافة المزيج الكوني، تر: خالد كسراوي، مر: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، ط 1، 2015: ص 102: 103

[48]) انظر: د. برهان غليون، مجتمع النخبة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط 1، 1986م : ص273: 274

[49]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا : ص 64

[50]) المصدر السابق: ص 65

[51]) السابق: ص 66

[52]) السابق: ص 64

[53]) السابق: ص 35

[54]) السابق: ص 35

[55]) السابق: ص 35

[56]) السابق: ص 35

[57]) السابق: ص 11

[58]) بو علام معطر، نسق الهيمنة الثقافية وآلياتها من منظور بياربورديو، مجلة دراسات، عدد، 4، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية : ص 174

[59]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا : ص 105

[60]) السابق: ص 105

[61]) السابق: ص 105

[62]) مجموعة مؤلفين، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999م : ص 812

[63]) المرجع السابق: ص 812

[64]) زوليخة باجي، تجليات الأنا والأخر في الخطاب الروائي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، الجزائر، ع 12، 2017م : ص 84

[65]) إبراهيم عيسى، مولانا: ص 274

[66]) المصدر السابق: ص 105

[67]) السابق: ص 276

[68]) السابق: ص 90

[69]) السابق: ص 105

[70]) السابق: ص 92

[71]) السابق: ص 387

[72]) الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه: ص 90

[73]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 213

[74]) المصدر السابق: ص 213

[75]) السابق: ص 180

[76]) السابق: ص 181

[77]) السابق: ص 182

[78]) السابق: ص 182

[79]) السابق: ص 317

[80]) السابق: ص 317

[81]) السابق: ص 182

[82]) السابق: ص 317

[83]) السابق: ص 318

[84]) السابق: ص 318

[85]) السابق: ص 318

[86]) جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الرواية العربية، مجلة الأزمنة الحديثة، المغرب، ع 3، 2011م: ص 141

[87]) انظرآن شو ستاك ساسون، مداخل إلى جرامشي، السيطرو السايسة، الثورة، الدولة، تر: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م: ص 23

[88]) المرجع السابق: ص 138

[89]) Patrick Williams & Laura Chrisman: edited and introduced: Colonial discourse and Postcolonial theory A Reader":. Columbia University Press: New York: 68:73

راجع

[90]) إبراهيم عيسى، رواية مولانا: ص 140

[91]) المصدر السابق : ص 139 : 140

[92]) السابق: ص 143

[93]) السابق: ص 144

[94]) السابق: ص 144

[95]) السابق: ص 552

[96]) السابق: ص 554
[97]) السابق: ص 430
[98]) السابق: ص 467
[99]) السابق: ص 408
[100]) السابق: ص 408
[101]) السابق: ص 410غ